

كتب فوجه

صفحات من تاريخ العرب

بقلم
الكتور جمال الدين النوري

0198089



Bibliotheca Alexandrina

90
7

کتاب فومینہ

صفحات من تاريخ العرب

يعلم
الدكتور جمال الدين الرمادي

الكتاب الأول

مقدمة

يجتاز المجتمع العربي في العصر الحاضر دوراً جديداً له خصائصه ومميزاته ، في تاريخ البشرية ، ويعمل ولاية الامر على حمايته من أدران الماضي وتطهيره من التحكم والاستغلال ويهدف الى تطبيق الاشتراكية السليمة وهي في معناها على حد تعبير السيد الرئيس جمال عبد الناصر عبارة عن تواج سلبية وتواج ايجابية والسلبية تتمثل في القضاء على آثار الماضي البغيض ، والنسواحي الايجابية وتتمثل في البناء للمستقبل الذي ينشده كل المواطنين

فالاشتراكية في المجتمع العربي الجديد هي القضاء على الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال ، والقضاء على الاستغلال من الداخل والمخرج والاشتراكية في معناها الايجابي هي اقامة اقتصاد وطني ثم العمل على تنمية هذا الاقتصاد ، ثم تطوير هذا الاقتصاد ليواجه حاجات المجتمع والعمل على اقامة عدالة اجتماعية .

هذا هو نهج مجتمعنا العربي الجديد في جلب المصلحة اليه ، ورد المفسدة عنه ، وهو في نهضته ووثبته لا يتنكر للماضي ولا يسخر من المجد العربي القديم والحضارة العربية التالدة انما يستمد منها طاقته وقوته ، فالعرب استطاعوا ان يقهروا العالم شرقه وغربه بعبقريتهم السمحة ، فاستسلمت لجيوشهم شعوب ودول ، وهوت تحت أقدامهم عروش وأمم ، وذلت لهم ملوك وأكاسرة وأذلوا العالم بانتصاراتهم وما آتوه من معجزات مطرعا لهم التاريخ بأحرف من نور ، ورفضوا راية الاسلام خفاقة في العالين ؛ وتروى قصص البطولة والجهاد والحرس على الموت والاستشهاد في سبيل الله

دورهم في هذا السبيل، فمكن الله لهم في الأرض واستخلفهم فيها حتى أتى على الإسلام حين من الدهر ، فقد المسلمون فيه إيمانهم بالله ، واختلطت عليهم عقيدتهم ، فاعتبروا دينهم عبادات تؤدي وفراغاً تقضى ونسوا أن الإسلام صبر وجهاد وأنه ما فرضت سائر العبادات إلا لإعداد المسلم المؤمن لحوص المارك دفاعاً عن دينه ووطنه وحرية وعزته .

والمجتمع العربي الجديد يحاول أن يستفيق من هذا السبات العميق الذي ران عليه منذ أجيال طويلة ويقلب صفحات الجسد والبطولة التي تآلق بها تاريخه الخافل، وازدهرت بها أيلامه الخوالي . يعلم أنه يصارع عدواً واحداً هو الاستعمار ومن أجل القضاء عليه يجب أن ينضوي العالم العربي تحت لواء الاتحاد والجهاد وتؤمن كل أمة بأن بقاها وعزها مرتبطان ببقاء وعزة المجموع .

وفي الصفحات القادمة سنحاول أن نرسم صورة لمضارة المجتمع العربي في عصور ازدهاره وازدهائه ودور العرب في خدمة الإنسانية والمعارف البشرية حتى نتخذ منهم أسوة حسنة في تطوير مجتمعنا الجديد .

ثم نسرده بعد ذلك قصة التآمر في الوطن العربي لتكون عبرة لمن يعتبر . وليؤمن المظلون بأن شمس الحق لا بد ظالعة ، وسيملاً نورها الأكوان ، وسيغمر سناها شتى الاقطار والامصار ، فإذا صروح الظلام تنهاوى على الأرض كأنما زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها .

إن الوحشة العربية هي أقصى أمانينا ، ومتجمع آمالنا وهي لا بد واقعة إن عاجلاً أو آجلاً ، فإن ما يربطنا من تاريخ مشترك . . وكفاح متصل وجهاد ذقنا مره وقضاضته وسعدنا بنكته وحلاوته وإن ما يجمعنا من لغة واحدة ، وهدف واحد أقوى من كل محاولة تريد تفرقنا وتهدف إلى تشتيتنا ، وتروى إلى بث الضعف في صفوفنا .

لنأخذ من التاريخ عبرة وعظة ، ولنؤمن بأن الوحدة هي
العروة الوثقى التي يجب أن نسعى إليها ونتمسك بها ، ولا يمكن
الاستعمار أو أعوان الاستعمار أن يفتنوا سمومهم في كفاحتنا ..
فالكفاح شجرة مباركة جذورها في الأرض ورأسها في السماء ترويضها
التضحيات الصادقة ، والجهود المخلصة والعمل على إيجاد مجتمع
ديموقراطي اشتراكي تعاوني تزال فيه الفوارق بين الطبقات وتمحي
فيه تلك الثغرات الواسعة والفجوات الرجعية التي توهن في عضدنا
وتوزع جهودنا .

فمهما حاول خصوم القومية العربية بثني الوسائل أن
يرهنوا من كفاح الأمة بصورة أو أخرى فإن النصر قريب وهو آت
لا ريب فيه ولا مفر منه ويعز الله بنصره من يشاء .

الفصل الأول

مجتمع اسلام وسلام

أن الباحث في تاريخ الحضارة الانسانية يجد آثارا كبيرة لحضارة الاسلام في العرب ، كما يجد كثيرا من الدعوات الغربية في السلام وحقوق الانسان وحرية الافراد والشعوب قد جاء بها الاسلام من قبل ولم تكن الا اصداء لما تضمنه القرآن الكريم من حكم عالية ومواعظ سامية ودستور عظيم في السلوك الانساني والقواعد الاخلاقية والقوانين التولية .

والاسلام دين محبة وسلام واخاء ووفاء ، وهو يحض على السلام بل أنه نفسه مشتق من السلام وقد دعا الله سبحانه وتعالى الى السلام وكانت ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر هي ليلة السلام فقال تعالى : « سلام هي حتى مطلع الفجر » .

كما دعا بالسلام على الانبياء والمرسلين فقال في سورة الصافات : « وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين » وقال أيضا . « وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم » وقال كذلك . « وتركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين » .

كما بشر المؤمنين الصالحين بالجنة التي عرضها السموات والارض وجعل السلام تحية لهم وتعظيما فقال في سورة النحل : « سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » كما قال في سورة الحجر : « أن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمين » .

كما جعل الله سبحانه وتعالى السلام وسيلة لمخاطبة الجاهل السفيفه الاثيم فقال في سورة العرقان : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

ولم تكن الاسلام في يوم من الأيام يحلدم القوة والعنف

نسر مبادئه بل لم يجعل الحرب ذريعة من ذرائع نشر الدعوة الإسلامية فقال في كتابه العزيز : « وقل للذين آمنوا أوتوا الكتابوا الأميين أسلمتم فإن أسلموا فقد أحقوا وإن تولوا فأنما عليك البلاغ » .
 والله سبحانه وتعالى اذن لم يجبر المسلمين على استخدام القوة في نشر دينهم بل أمرهم أن يدعوا الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوا بالتي هي أحسن كما أمر الله تعالى المسلمين بالآسئل وسائل اليطش والتعذيب في معاملة أعدائهم وقسمل الرسول بمصداق قوله تعالى : « وما أنت عليهم بجبار » ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيده ، وجاء في صحيح مسلم عن بريده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تفلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » .

وفي القرن العشرين قامت المنظمات الدولية لنشر السلام وتجنب الحرب فقامت عصبة الأمم والأمم المتحدة من أجل السلام وتجنب ويلات الحرب ففصلت الأولى وأصبحت أداة في يد المنتصرين في الحرب العالمية الأولى لارغام المهزومين على الرضسوح لشروط الصلح مما دفع ألمانيا الى الانسحاب من العصبة عام ١٩٣٣ كما عجزت عن حماية الصين من اعتداء اليابان عليها وانشائها امبراطورية في منشوكو كما عجزت عام ١٩٣٥ عن حماية الحبشة من اعداء الايطاليين عليها ثم انتهى الامر بها الى الزوال وظهرت على مسرح السياسة الأمم المتحدة عقب اجتماع مؤتمر يالطا بين ٣ ، ١١ فبراير عام ١٩٤٥ ثم مؤتمر سان فرانسيسكو في ٢٥ أبريل ١٩٤٥ وقد استقر الرأي بعدئذ على انشاء هيئة دولية علمة للمحافظة على السلم والأمن لان انشائها ضرورة لمنع الاعتداء او لازالة الاسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤدي الى الحرب وذلك بالتعاون الوثيق المستمر بين الشعوب المحبة للسلام كافة .

وقد جاء في ديباجة ميثاق الأمم المتحدة : « نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلفنا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي جلبت على الإنسانية مرتين في خلال جيل واحد احزاننا بمعجزتها الوصف وإن تؤكد من جديد ايماننا بالحقوق الإنسانية للآسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأطفال والأمم كبرها

وصغيرها من حقوق مساومه وأن بين الأحوال التي يمكن في ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي وأن ندع للرقى الاجتماعى قدما وأن برفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وأن نعيش معا في سلام وحسن جوار وأن نصمم قواتنا كي نحفظ بالأمن والسلم الدوليين . »

وأن من ينعم النظر في هذه الديباجة يجد أن الاسلام دين السلام ولا يستلزم الحرب الا للضرورة القصوى وقد كان من أوله الاعمال التي قام بها النبي بعد الهجرة الى المدينة أن أحى بين المهاجرين والأنصار وأقام حسن الجوار بين المسلمين ومن سألهم وودع الرسول نفسه مع قريش في عام الحديبية معاهدة طقن السماء وصيانة الحرمات وحسن العلاقات بين الجانبين وقد أمر الله تعالى بحسن معاملة المسلمين فقال : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » - كما نهى عن الاعتداء والتشفي بالتمثيل والتعذيب فقال : « ولا تعذبوا ان الله لا يحب المعتدين » وقال تعالى : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان مظلوما . »

كما أن الاسلام حارب العصبية والافتكار الجاهلية الاولى التي كانت تدعو الى التعصب والتحيز وتبالغ في سمو جنس على جنس أو ارتفاع قبيلة على قبيلة أو سيادة جماعة على جماعة فقال عز وجل « انما المؤمنون اخوة » كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » كما دعا الاسلام الى عدم التفرقة بين الألوان والاحناس والشعوب والقبائل وقضى على العنصرية وأثر عن الرسول أنه قال : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي » ولم يفرق الاسلام بين مسلم ومسلم الا بالتقوى كما أوصى الاسلام الأفراد والدول باحترام العقود والعهود والمواثيق فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » كما قال عز وجل : « وأوفوا بعهدي الله اذا عاهدتم ولا ينقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون » .

بل ان الاسلام دعا الى احترام المعاهدات بدقة وإمانة حتى مع

الوثنيين فقال عز وجل: «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم أن الله يحبه المتقين» .

وإذا كان الغرض من ميثاق الأمم المتحدة هو إقامة الشورى بين الدول حتى لا يستبد القوى بالضعيف فإن الله تعالى قال في سياق مدح المؤمنين «وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم يفتقون»

كما قال : «فبما رحمة من الله لست لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» .

وإذا كان ميثاق الأمم المتحدة ينص على تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية وعلى تعزيز احترام حقوق الانسان والحريات الاساسية للناس جميعا والتشجيع على ذلك اطلاقا بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء فإن الاسلام دعا الى التآلف والتعاطف بين شعوب العالم فقال تعالى في كتابه العزيز : «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» وليس من شك في أن في هذا التعارف تبادل المتفاع على اختلاف أنواعها وشتى صنوفها ومى حكمه عز وجل خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان على نحو ما جاء في كتابه العزيز : «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم واللوانكم» .

كما قال تعالى في الحرية الدينية «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر» وقال عز وجل : «لكم دينكم ولي دين» .
وجعل للأشئ مثل حظ الذكر في الثواب والعقاب فلهما في الآخرة درجات المتقين أو درجات الأشرار المفسدين «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجسيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» .

ولقد نص القرآن الكريم على تساوى الجنس البشرى في أصله ومنه فقال تعالى : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس

واحدة . وحلوا منها روحها وبث منها رجالا كثيرا وساء كما نص الكتاب العبري كذلك على كرامة الانسان فقال تعالى : « ولقد كرما بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

كما يعتبر الاسلام الناس سواسية كأسنان المشط ويحارب الأنانية والآثرة والمتافع الدانية ، والرغبات الشهوانية فقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديث شريف ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وهذه دعوة صريحة الى المحبة والمودة والاخاء بين الناس جميعا وإزالة الفوارق والأنانية والآثرة بين النفوس البشرية .

أصف الى ذلك أن الاسلام دعا الى عدم انتقاص حقوق الناس أو البخس بها أو اغضاء النظر عنها ، وفي هذا يقول الله عز وجل في كتابه العزيز « ولا تبخسوا الناس اشيائهم ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين » .

وهكذا ..

وهكذا كان الاسلام أولا وقبل كل شيء المصدر الاول للتشريع الدولي بل لقد تنبه الى كثير من القوانين الدولية قبل أن تقتضيه اليها الدول الحديثة ومثال ذلك ان الاسلام يستوجب اعلان الحرب ومنع الغزو فقال تعالى : « وما تحامن من قوم خيانة قانبد اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » فهذا المبدأ الاخلاقي لم يستطع القسانون الوصفي أن يقره الا منذ سنوات معدودة وكان ذلك عام ١٩٠٧ على اثر انعقاد مؤتمر لاهاي الذي نص على الاتيبدأ الاعمال الحربية الا بعد اخطار سابق لا ليس فيه يكون اما في صورة اعلان حرب مسبب أو في صورة انذار نهائي يذكر فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين وكذلك الحال بالقياس الى عدم التكيل بالأسرى ووجوب العناية بالمرضى وقد نصت بعض الاتفاقات الدولية التي عقدت في هذا القرن على هذه الامور التي دعا اليها الاسلام منذ قرون طويلة .

وقد ضم القرآن الكريم بين جنبااته ما يبهري رجال الاقتصاد في العالم فتحدثت الاسلام عن عوامل الانتاج كوسائل بسخرها البشر:

لخدمتهم ورفاهيتهم وطالبهم بأن يسخروها ويأكلوا منها ومن ثمرها
وجعل عوامل الانتاج خضعا للبشر لا البشر خدما للانتاج أو عوامل
الانتاج فالطبيات حق لجميع من يمشى في متاكب الارض ويستخدم
وسائل الانتاج فقال تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات والارض
جميعا » . كما قال عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعدون » .

وقال تعالى : « وهو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى
مناكبها وكلوا من رزقه » .

وقد قامت النظريات الغربية فى الاقتصاد على كثير من هذه
المبادئ الانسانية التى تضمنتها القرآن الكريم والاسلام الحنيف
وتشدد بها الغربيون على انها ناسج جديد وفكرة مبتكرة ولكنها
فى الواقع وحقيقة الامور تعود الى الاسلام فى مصادرها ولحماتها كما
تعود الى كلمات الله عز وجل فى كتابه المبين الذى لا يأتىه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه .

الفصل الثاني

الفتوحات الإسلامية في أوروبا

للإسلام فضل عظيم على الحضارة الحديثة لا يمكن تجاهله ، اغضاء النظر عنه ، وقد أدى اتصال المسلمين بالغرب الى انعكاس الحضارة الإسلامية على أوروبا ، مما كان له أبعد الأثر في تطور الفكر العالمي .

ويرجع اتصال المسلمين بأوروبا الى العصور القديمة في التاريخ بيد أن سلطان المسلمين اتسم بطابع الفزو منذ فتح الإندلس في العصر الأموي . . اذ حاول المسلمون في العقد الثاني من القرن السابع الميلادي غزو أسبانيا من ناحية أقرنينا ، قشوا غاراتهم على الشواطئ الأسبانية في عهد الامبراطور القوطي «أفصا» عام (٦٧٢ - ٦٨٠ م) .

وعندما تمكن موسى بن نصير من فتح بلاد المغرب ، فكر في غزو أسبانيا وقد شجعه على هذا العمل الكونت «جوليفاف» الذي تحالف مع حزب «أخيلان» لنزع «رودريك» آخر أباطرة الدولة القوطية في أسبانيا عن الحكم .

فطلب موسى بن نصير من الوليد بن عبد الملك أن يأذن له في القيام بعملية على أسبانيا فأذن له الوليد في شيء من التحفظ ونصحه بأن يتأكد من صدق تبة «جوليان» متخافة أن تصاب جيوش المسلمين بكارثة في هذه البقاع الفسيحة في أوروبا .

وأرسل موسى بن نصير «طريف بن مالك» على رأس جيش مكون من خمسمائة محارب عام ٧١٠ م (٩١ هـ) لارتياح هذه المناطق فغزا الجيش الثغور الجنوبية في بلاد الإندلس ، وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب . وقد ناصر «جوليان» جيش طريف بن مالك في معاركه ، وأمامه بكثير من المدد مما حقق له النصر ، فشجع هذا

الصنيع موسى بن نصير على متابعة الغزو مرة أخرى فوجد جيشاً
لجياً قوامه سبعة آلاف معاتل جلهم من البربر ، وولى القيادة للقائد
العربي المشهور طارق بن زياد وكان طارق في هذه المدينة حاكماً
لمدينة طنجة واشتهر بالعدل والشجاعة والهمة العالية .

وعبر طارق البحر عام ٩٢ هـ في سمن «جوليان» والعمراسه
في إقليم البحيرة بجنوب اسبانيا واستعد لتفاجئة عدوه في عمر داره
وكان الامبراطور «رودريك» في هذه الآونة مشغولاً بقمع الثورة
الداخلية التي شبت في أرجاء البلاد ابتغاء خلعهم عن العرش بيدانه
عندما أدرك الخطر المعلق به من جانب المسلمين ، سارع الى تجهيز
جيش كبير يبلغ عدده زهاء مائة ألف مقاتل ، ونزل به الى ساحة المعركة
ولكن جيش «رودريك» لم يكن منتظماً متماسكاً ، وكانت الحروب
الاهلية قد قتت في عضده فلم يبد ثباتاً في القتال وانتهى الامر
بهزيمة هزيمة منكرة امام جيش طارق بن زياد .

عاد «رودريك» الى تنظيم جيشه وحضر اليه كثير من اللد
فلما رأى طارق بن زياد هذه الجموع المتكاثرة من جيش (رودريك)
طلب من موسى بن نصير أن يمدّه بعدد من المقاتلة فأرسل اليه
موسى خمسة آلاف مقاتل ، والتقى طارق بجيش «رودريك» على
ضفاف وادي نهر «بكا» Wady Bekka في يوليو عام ٧١١ م (٩١ هـ)
وظلق طارق بشن هجماته على جيش «رودريك» حتى أسسله
للهمزيمة وعلى أثر انتصاره في هذه المعركة مضى يزحف على مدن
اسبانيا ، فوقعت في يده مدينة اشبيلية وقرطبة وطليطلة وغيرها
من المدن الاميبانية .

ولما ترامت الانباء الى موسى بن نصير بانتصار طارق بن زياد،
تملكته الغيرة لأن فتح الاندلس سوف يكون مقروناً باسم غير اسمه
فجهز جيشاً لاتمام هذا الفتح حتى يكون له هذا الشرف وكتب الى
طارق بن زياد يأمره بأن يقبح في مكانه ولا يتقدم من زحفه حتى تصل
اليه أوامر أخرى .

ولكن طارق بن زياد لم يلق بالا الى كتاب موسى بن نصير
ومضى في بلاد الأندلس من نصر الى نصر لانه رأى أن توقف الزحف
سوف يمكن الاعلاء من معاودة الهجوم على كتابه ويعرض جيشه
خطر داهم ويعطى لاعدائه الفرصة للنيل منه وردّه على اعقابهم .

وعندئذ سارع موسى بن نصير الى التوجه الى الاندلس على رأس جيش لجب في يونيو عام ٧١٢ م (٩٣ هـ) واخذ يطوق بجيشه المدن الاسبانية ففتح انبيلية مرة أخرى ، وحاصرها شهرا وكانت قد رفعت راية العصيان على جيش طارق بن زياد - كما فتح غيرها من المدن الاسبانية ثم لحق بجيش طارق بن زياد ، وعندما التقى بطارق لأمه على عزم ادعائه للامر ، وطالبه بما اسولى عليه من غنائم وأسلاب .. بل أنه تمادى في اهانتة فوصعه في السجن .

وعز على أنصار طارق بن زياد أن يسجن قائدهم وهو الذي حقق هذا النصر المؤزر في اسبانيا ، فعولوا على انقاذه واخراجيه من معتقله واستطاع طارق بن زياد بفضل أنصاره أن يتصل بالخليفة الوليد بن عبد الملك الذي بث اليه شكواه فكتب الوليد الى موسى بن نصير أن يطلق سراحه ، ويرده الى عمله ، ويستند اليه القيادة مرة أخرى .

وبعد موسى بن نصير أمر الخليفة الوليد وسار موسى وطارق معا لفتح شمال بلاد الاندلس ، وبعد أن رالت الجفوة بينهما ، فتحا اقليم أرغونة angon وقشتالة Cantile وبرشلونة Borue lone وغيرها من المدن الاسبانية حتى بلغا جبال البرانس في أقصى الشمال وتم بذلك فتح شبه الجزيرة ، عدا تلك الاقاليم الجبلية الواقعة في الشمال الغربي التي آوى اليها بعض اشراف القوط ورجال القبائل الثائرة التي رفضت أن تخضع لحكم المسلمين في اسبانيا .

وعول موسى بن نصير بعد تحقيق هذا النصر المبين ، على أن يتوجه بجيشه الى فرنسا حتى اذا ما تم له الفوز اتجه الى القسطنطينية شرقا ، ولذلك يصح البحر الابيض المتوسط بحرية حائلة ، تدين لها شعوب أوروبا جميعا بالخضوع والولاء .

وعندما وصلت أنباء هذه المطامع الى الوليد بن عبد الملك ، أمر موسى بن نصير أن يخفف من آماله والفرصة غير مواتية في تلك الظروف لتحقيق هذه الآمال العريضة واستدعى الوليد موسى بن نصير وطارق بن زياد ولكن موسى قبل رحيله الى دمشق نصب ابنه عبد العزيز واليا على بلاد الاندلس فأظهر من العدل والمساواة ما أقلق خصومه فعولوا على الانتقام منه .. ولا سيما أنه ساوى بين جميع

طبقات الامة دون تمييز في الجلس أو الدين وشجع العرب على
مضاهرة المسيحيين وضرب هو المثل على ذلك فتزوج من امرأة
«روميك» التي بعثت على دينها .

ودبرت على ان ذلك مؤامرة لقتله ، وبعد مصرعه اقام الجنود
قائدهم انوب بن حبيب ابن اخت موسى بن نسر واليا على بلاد
الاندلس فاتخذ قرطبة عاصمة للبلاد وعمل بها بعض الاصلاحات
غير أن مدة ولايته لم تطل .

وعندما تولى حكم الاندلس «السميع بن مالك» عام ١٠١-١٠٢هـ
اخترق جبال البرانس ورحل على اقليم بروفانس في فرنسا وحاصر
مدينة تولوز فترة طويلة ولكنه اضطر أخيرا الى الانسحاب .

وعندما تولى «عبد الرحمن العافق» الحكم في الاندلس عام ١١١
هـ عاد نجم المسلمين في الاندلس الى الازدهار والارتفاع . . اذ قام
بكتياف من الاصلاحات التي رفعت الروح المعنوية للعرب في هذه البقاع
وحجز جيشا للقال في بلاد عالة فخرج مائة آلاف مقاتل ، واستولى
على دوقية «اكتيانا» وهي مقاطعه مسقلة جنوب اللواء .

وجمع شارل مارتل جيشا كبيرا اصطدم بالمسلمين في معركة
«بوابيه» وهناك دارت المعركة الحائلة المعروفة في التاريخ باسم
معركة «تور» ويسمى مؤرخو المسلمين «بلاط الشهداء» عام ٧٣٢ م
(١١٤ هـ) التي أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا صرحت به الامصال
وكاد النصر يتوج هجمات المسلمين في هذه المعركة وذلك بمكشوف
عن فتح أوروبا برمتها ونشر الاسلام ، بيد أن الدوائر دارت عليها في
نهاية المعركة الطاحنة وأصيب عبد الرحمن العافق بسهم ارداه فيلا
فانتشرت الفوضى بين الصوف وديب الفرقة بين العوس وازدادت
الطامع في الاستيلاء على الحكم مما بعث الاضطراب في الجيش
العربي فاضطر الى التقهقر والانسحاب ازاء هجمات شارل مارتل .

ولولا هذه الهزيمة لتغير وجه التاريخ واستطاع العرب ان يعدوا
سلطانهم الى بلدان أوروبا كافة واستطاع الاسلام أن يدخل هذه
المناطق .

وقد عمل المسلمون في الاندلس على نشر العدل والمساواة وازالة

العوارى بين الطبقات وقد رحبت طبقة العبيد ورفيق الارض اسما
ترحيب بالفتح الاسلامي واعبرته خلاصا لها من نير الاسبندورقه
الاستعباد وفلاكا لها من ملك العبود التي وصعها اسياها اغوط
باغين طاعين ظالمين بل ان بعضهم اعنق الاسلام وبالوا الجموع التي
اتبعوا لغيرهم من المسلمين واصبحوا بسعة الله احرارا .

وفي طليطله باسبانيا نسا اكرم مركز للدراسات الاسلامية
ومثل الانار العربية الى اللغات الاوربية وقد وضعت فيها بمساعي
رئيس الاساقفة «ريموند الاول ١١٢٦-١١٥١» مدرسة نظامية
للت ترجمة لمع فيها مخرجون ماعرون ووجد انيها من الجزر البريطانية
مايكل سكوت Mienet Scot وروبرت اوف Robert of Chester
وقد نقل روبرت كتابات الجير لنخوارزمي كما نشر اول ترجمه لاتينية
لقرآن الكريم (الراهب بطرس المحترم) .

كما انتشرت العلوم العربية في ليلاج Liege وجورر
vorze وكولون Cologne في جنوب فرنسا .

وقد عمل المسلمون في الاندلس على نشر الاسلام . وانشاء
المساجد وتشجيع العلم حتى قال العالم دوري لم يكن يوحد في بلاد
الاندلس رجل اعى واحد في الوقت الذي لم يكن في اوربا من علم
بالقراءة والكتابة الا طبقة القسيس ، وقد انشأ الحكم الثاني ٢٧
مدرسة مجانية بلوارها لكي لايبقى احد من رعيته محروما من نعمة
العلم ، وكانت جامعة قرطبة أشهر من الجامعة النظامية في بغداد .

لم يقض العرب تماما على التوار العوط في بلاد الاندلس اد
اعتصم فريق منهم بالجبال وشكلوا وراء تلك المسلسلة الجبلية في
استورياس حكومة ثورية وشرعوا يشنون الحملات تلو الحملات على
العرب . ولم يلبث ان عضدهم ملوك الفرنجة وامدوهم بالحيوش
جاستعادوا حنفيا Valence وفسما من قشتالة Castille حتى اصبح
العرب محوطين من اماكن محتلة بقوات التوار .

ومما ساعد هؤلاء النوار في أداء مهمتهم ذلك الخلاف الناشب
حول العرش الأموي ، وتلك الثورات والعن التي سببت في أنحسار
محتلة من الاندلس - حتى تمنى للاسبان الهجوم على العرب .
جاستولوا على ثلث ما استولى عليه العرب . أما الثلثان الباقيان فقد

قام عليهما ملوك الطوائف واشهرهم نبوريرى فى غرناطة Grenade
١٠١٩ هـ ١٠١٩ م وبنو عامر فى بلنسية Valence ٤١٢ هـ اى
١٠٢١ م وبنو عماد فى اشبيلية Seville ٤١٤ هـ ١٠٢٣ م وبنو
هود فى مرقسطه - Saragossa

وقد صبق فى هؤلاء الملوك قول الشاعر ابن الخطيب :

حتى اذا سلك الخلافة انتثر وذهب العبي جميعا ولا اثر
قام بكل بقعة مليك وصاح فوق كل غصن ديك

ولم يات النصف الثاني من القرن الحادى عشر للميلاد حتى
تولى الملك العوقس الثالث ملك قشتالة قيادة الحلفاء فدخل طليطله
عام ٤٧٨ هـ اى ١٠٨٥ م واتحدتها عاصمة لدولته ودعا الأماكن التى
افتتحها قشتالة الجديدة ، وارسل يهود المعتمد بن عباد وصاحب
قرطبه واشبيلية وأعظم ملوك الطوائف ، وشعر الأندلسيون بسوء
المصير وقال ابن العسال الطليطلى .

حثوا ارواحكم يا اهل اندلس فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه ذارى سلك الجزيرة منشورا من الوملط

وقد عقدوا مجلسا فى قرطبة اجمعوا فيه على استنجد دولة
المرايطين ولكى جهودهم كانت عبثا -

وفى هذه الفترة التى كان ملوك الطوائف بضمحل شأنهم
كان يوسف بن تاشفين سلطان البربر ٤٥٣-٥٠٠ هـ قد قصص على
ناصيتى المغرب الأقصى والأوسط . وبنى مدينة مراكش ليعيم فيها
ولما آتته رسل الأندلسيين يطلبون التجلة اجاز بجيش كثيف الى
اسبانيا وغلب الاسبان فى معركة يقال لها الزلاقة عام ٤٩٩ هـ
١٠٨٦ م ، ولما شاهد يوسف بن تاشفين هذه الانتصارات العظيمة
التي حققها بنفسه حدثته نفسه أن يسيطر على الاندلس ، فكان
الأندلسيون كالمستنجدين من الرعاء بالنار ، وتمكن يوسف بن
تاشفين من الاستيلاء على مدينة «إفراعه» فى شرق الأندلس ، وعلى
مدينة « لقيونه » فى غرب الأندلس ، واستطاع أن يسترد الحصون
التي أخضعها ملوك الطوائف ، ولكن لم يلبث أن ظهرت دولة أخرى

عهد ابنه تاشفين ٥٢٧ هـ ٥٢٩ هـ قصت على دولة المرابطين في المغرب
واسبانيا ، وتم لها القضاء الاخير في عهد حفيده اسحاق ٥٤١ هـ ،
١١٤٦ م -

ولم يهدد المرصع عن عمل المحاولات المتواصلة لاجراج المسلمين
من اسبانيا ، وكان البابا يدعو الى اجراج «الهرطقة» من الاندلس ،
وقد استمررت المناوشات بين دولة الموحديين والمرصع فترة طويلة حتى
استطاعوا ان يحلوا كثيرا من المدن الاندلسية ، التي استولى عليها
العرب ، وكان آخر الامارات التي ظلت في حوزة العرب في اسبانيا
هي امارة «غرناطة» وكانت في يد بني الاحمر . ولما انتهى الملك الى
أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة كانت مملكة اسبانيا المتحدة قد قامت
عقب ان تزوج فرديناند بايزابيلا ، وقد استولت هذه المملكة على
ضواحي غرناطة وحاصرتها فترة طويلة حتى لم يجد أبو عبد الله مفرًا
من الصلح ، ولكن قائده موسى أبي ذلك ، وطلب أن يحارب حتى آخر
قطرة من دمه ، وباشد الملك ورجال الدين أن يهملوه ريثما يهجم
بجنته على الأعداء المحاصرين ، فاما أن يخترق صفوفهم ، واما أن يموت
ولكن هذا كله لم يجد فتيلة ، وأخيرا لم يجد الملك متاعا من المفاوضة
في شأن الصلح ، فأرسل أبو عبد الله وزيرا الى ملك الاسبان لهذا
الغرض فاستقبله الملك استقبالا حسنا وعرض عليه شروط الصلح
وكانت سبعة وستين شرطا ، فعاد بها الوزير الى أبي عبد الله فعلم
أن أهمها أن يكتب أهل غرناطة البيعة لصاحب قشتالة فيسلموه
المدينة ومعانيها ، وما فيها من الحصون على أن يؤمن المسلمون في
النفس والأهل والمال ، ويقيموا شريعتهم على ما كانت عليه ، ويعك
اسار جميع الأسرى ، الاسبان في غرناطة .

وقد اضطر أبو عبد الله الى الاذعان لهذه الشروط ، ولكن موسى
قائد الجيش أبي عليه ذلك ، والتفت الى الحند وقال . اتركوا المرصع
والسكاء للاطفال والنساء ، وهيا الى ساحة الحرب ، بقلوب أضراها
البأس ، ولتمت هناك موت الابطال - - أنابى الموت في دار الشرف
والجهاد ، أفضل أن نرى مدينتنا تدخل في حوزة العدو ونحن
مكتوفو الأيدي لا تبلى حراكا ، أم أن نموت في الدفاع عنها موت
الشهداء ؟

أما بن موفوسا ، وفقدنا تلك الحماية التي كانت تعتمد من
 صديري ٠٠ اذن فكيف مرضى بهذه الشروط الشائنة ، وبطبع ير
 النمل والهوان على أعناقنا ، اى أرى اليأس مستوليا على القلوب ٠٠
 وأبواب السجاة موصدة من الوجوه ، على أن لأبى الحر ملجأ يلجأ
 اليه اذا سددت في وجهه سبل الشجاة ، ألا وهو الموت ، فابى لأوتر
 أن أموت حرا كريما على أن أعيش عبدا ذليلا ، أظنتم أن الفرنج
 يصدون من وعدهم لكم ، وان ما بيديه ملكهم الآن من الرقة
 والنبي ينوم بعد أن يملك دياركم ، ويضع يده الثقيل في أعناقكم ،
 لا والله ، فلا تجدوا أنفسكم ، ان الموت لأحب ما سيحل بنا من
 البلاء والأهوال ، فكيف نخافونه ، وان تخافوا فحافوا بهب
 مدينتكم ، وتدنيس مساجدكم ، وانتهاك أعراضكم ، واشتداد الظلم
 عليكم ، فذلك ما ستلعمونه من عدوكم ، وسيرى الذين منكم يحافون
 أن يموتوا اليوم موت الإطال ما هم أسعد مالمات عدائنا أما أنا فوالله
 لن أرى ذلك أن الموت لأند منه أن عاحلا أو أجلا على قض ما بقى لنا من
 هذه الحياة بالثار من الاعداء ، علموا الى الموت ، ان اما الارض
 فاتحة صدرها الرحيب لتضمنا اليها ، وان ضائق صدر الارض عنا ،
 ولم يكن لنا فيها قبور ، فيكفى أن تكون السماء غطاء لاجسادنا ،
 علموا أيها الاسياد ، فلا يعمل عنا ان رجال غرناطة جسوا عن الموت
 في ساحة الجهاد ، »

فهب معه فريق من المسلمين وطلبوا يحاهدون كالبنيان
 المرصوص بيد ان الحياة اوتت دورها ، وفي الثامن من شهر يناير
 عام ١٤٩٢ م ، استعد فرديناند وايزابيلا لدخول غرناطة ، واستلام
 مغاربي غرناطة من سلطانها المغلوب على أمره ، فتقلما تحفهما كوكبة
 من الفرسان ، وقد انتسحا بمطارف الأبهة والجلال ، وانتظرا مقسم
 ابنى عبد الله ومعه المغاربي الموجودة التي طالما نانا الى استلامها ،
 فلما أوفت الساعة أقبل أبو عبدالله شاحب الوجه ذاهب اللون
 وكان مستطيا صهوة جواده فلما اقترب من فرديناند ترجل احتراماً
 لشخصه ولكن فرديناند منعه من ذلك ، فاقترب منه أبو عبدالله
 وحياء ، ثم قال والدموع تفرق في مآقيه وتنهمر على صدره في حركة
 لاشعورية «أيها الملك العظيم تلك ارادة الله أن أسلمك مدينتنا وديارنا»
 وقد أصبحنا منذ الآن من وعايك فاجعل انتصارك علينا مقرونا بالعلم

والعدالة - - ثم احبى له وقدم له مفاتيح الحمراء فقبله فردساند وعزاه بكلمة لطيفة - ولكن ابا عدائه لوى وجهه - واسطى صهرا جواده وانحه مع رحاله صوب حال البشرات حيث كانت تنتظره أسرته .

فلما وصل ابو عدائه الى الحال وظل على غرباطه بكى - وهذا المكان أطلق عليه القريج - آخر سهدات العربي -

وفى اساء رحيلهم دوى صوب امه وهى مصيحه عندما ساهدته يبكى « أنك كأمراة على ملك لم تستطع ان تحافظ عليه كرجل »

واسدل الستار على امجادهم الساحقة فى هذه البقعة من الارض وقصى الاختلاف والتناحر بين المملوك والاقبال على ملك المسلمين الذى كان يمكن أن يمتد ويتسع حتى يشمل أوروبا برمتها

هذا وقد اتصل المسلمون بأوروبا اتصالا أحمر يختلف عن اتصالهم بالاندلس ويختلف عن الطريق الذى سلكوها من اجل هذا الغرض ، اذ حاولوا دخول أوروبا من الجنوب عن طريق ايطاليا ففتحوا جزيرة صقلية وكثيرا من مدن ايطاليا حتى حاصروا ورومية مقر الحبر الاعظم أو البابا ولم يحاولوا أن يحولوا كنيستها الكبرى الى مسجد كما فعلوا بالجامع الأموى فى الشام أو «أبا صوفيا» فى الاسقانة .

وقد اتجهت انظار المسلمين الى صقلية لأنها تقع فى منطقة متوسطة فى البحر الابيض ويريط الشرق بالغرب عن طريق السفن الرائجة والقادية . وكانت ترسو فيها السفن القادمة من صور وقرطاجنة وطرسوس وبيزنطة وغيرها .

وبدأت المحاولات فى عهد معاوية بن أبى سفيان فقدمه المسلمون بالغزو عام ٦٦٩م وشنوا غاراتهم على مدينتهم «سراقوسة» وغيرها من مدن الجزيرة ولما عمد موسى بن نصير الى فتح أسبانيا أخذ ابنه عبد الله بجمد الى جزائر البحر الابيض المتوسط . فغزا ميورقة ، ومورقة ، وسردية وصقلية وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب .

ويروى فى سبب فتح صقلية أن قائدا من حامية الروم ،

اسمه « يوفيمبوس » أحب راهبة في بعض الأديرة كان قد وقع نظره عليها في الدير فهرب بها وتزوجها فتعسا خبره الى صاحب القسطنطينية فأحل دمه وأمر بقتله ففكر القائد في الانتقام وشن حملة نائرة في الجزيرة ورفع راية العصيان ولكن الدوائر كادت تدور عليه ويخفق في ثورته ويضع في أيدي أعدائه ويفقد فيه حكم الاعدام فاستنجد بالعرب وأرسل الى ريادة الله يحرضه على غزو الجزيرة كما حرص « جوليان » صاحب « سبتة » موسى بن نصير على فتح الأندلس .

تتردد « زيادة الله » في اجابنة هذا الطلب ولكنه آثر ان يستشير اصحابه فرححت كراهة اصحابه بالقيام بهذا الغزو واحتجوا بأن الروم قد نكثوا المعاهدة الموقعة بين الطرفين فجوز « زيادة الله » حملة عهد بقيادتها الى « أسد بن القرات » قاضي تونس وانضم اليها كثير من قبائل المسلمين البربر وركبوا البحر في عمارة مؤلفة من مائة مركب أقبلت من مرقا « سوسة » في ١٣ يونيو عام ٨٢٧ م (٢١٣ هـ) .

ورسلت الحملة الى مدينة « مازارا » فاستولى عليها العرب ثم توجهوا الى مدينة « سراقوسة » أهم مدن صقلية وكانت مدينة حصينة واسعة الأجزاء ممتدة المواحي محيطها أحد عشر ميلا ونصف ميل وتضم طائفة من الأبراج والحصون المنيعة والمعاقل الضخمة والأسوار الشامخة التي تضرب في عنان السماء وقصد وصلت المدينة اراء هجمات المسلمين صمودا جعل أسد بن القرات يطلب المعونة فحضر اليه المدد واستأنف هجماته على المدينة في قوة لا تثنين ولكن الصقليين اظهروا من الحلف والمهارة العسكرية ما قلقي جمود المسلمين حتى جاع المسلمون وأكلوا لحوم الخيل .

وتحالف المسيحيون في الجزيرة مع الحنود الاهلين على اخراج العرب باشارة من الامبراطور ميخائيل حاكم القسطنطينية وحدث في هذه الآونة أن أدركت المنية « القائد أسد بن القرات » قائد تلك الحملة فهدبت العربة بين صفوف المسلمين واضطروا الى التفهقر والانسحاب

وهجم المسلمون بعد ذلك على « كاسترو جيوفاني » وهو حصن منيع على جبل وعرف فيه حامية من الروم والصقالية فخذلق

المسلمون حوله وحاصروه وفصلوه عن بقية أجزاء الجزيرة وسروا حكمهم في هذه المنطقة باسم الدولة الاعلى وسكوا العملة بهذا الاسم وعندئذ ثارت بغوس الصعالية على المسلمين فرجعوا الى «مينيو» واشتد أوار الحرب بين الفريقين عامين كاملين .

ثم حامت عمارة عربية من الأندلس بقيادة «أصبخ بن وكيل» أمدت العرب بالمعونة والتونة. وجهر «زباد الله» عمارة من ثلثمائة سفينة وعشرين ألف مقاتل لهذا الغرض . وأبحرت هذه العمارة من شواطئ «أفريقيا» عام ٨٣٠ م (٢١٥ هـ) وقتلت هذه الحملة «تيودوتس» قائد الروم أمام أسوار «مينيو» بعد أن ألواها تفشي بين الجند تفشيا دريبا وأصيب كثير من العرب بالهلاك فعادت الحملة أدراجها الى أفريقيا والأندلس بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأموال والأرواح .

ولكن شردمة من جند المسلمين شنت الغارة على مدينة «بالرم» واستطاعت هذه الشرذمة أن تعتجها وتحملها قصة للحكم وتنتشر وجوه الإصلاح في كل مكان . . تبني المارل والقصور وتحفر الترع وبغرس الأشجار وتبشر العدل والمساواة بين الطبقات .

ثم ما لبث أن دب الخلاف بين الجنود المسلمين فادعى جنود الأندلس حق الفتح وطلب أن تكون «بالرم» تابعة لبي أمية في الأندلس كما ادعى الأفريقيون حق الفتح وطلبوا أن تنضوي «بالرم» تحت لواء الأغالية وكانت الغلبة للطائفة الأخيرة فعين «زباد الله» أميرا من قبله على الجزيرة .

واستولى المسلمون على «نابولي» في إيطاليا وقد أعان أهل نابولي المسلمين على ارتياد شواطئ البحر الادرياتيكي ومهدوا لهم سبيل التوغل في المدن الإيطالية وقد نزل المسلمون عند مصيب نهر «نو» وبلغوا أبواب مدينة «رومية» وغيرها من مدن إيطاليا .

وقد قضت صعلية في سيادة المسلمين بيفا وماتت سنة بعضها في دولة الأغالية ثم الفاطميين وغيرهم واستقل أمراؤها بها حينئذ ، وتوارثوا حكومتها ، وتنازعوا عليها حتى انقسمت الى مقاطعات وشرع كل أمير يتنافس غيره في مقاليد الحكم وكان على مرافوسة وغيرها عام (١٠٦٠ م) ١٥٢١ هـ ابن تمنا وكان على

حصص « كاسترو حيوفاني » ابن حواش فتحاربوا واشتبك الطرفان في معارك طاحنة انتهت الى انهزام ابن تمّنة واستيلاء ابن حواش على مقاطعته -

أما سائر إيطاليا فقد ظلت أربعة عشر عاما تحت حكم العرب وكان ديوقا « مسبوليتو وتوسكانا » ناظم على البابا فتحالما مع المسلمين على تحريده من أملاكه وظل أحد البابات يؤدي الجربة للمسلمين عن كرسيه فترة طويلة -

وبعد ذلك شرع يعود النورمان يزداد وينتشر وطغوا ويتدخلون في شتى أمور الحكم وكانوا قد هبطوا من اسكندنافيا في القرن التاسع واكتسحوا فرنسا وتولوا الحكم فيها زمنا -

وفي القرن الحادي عشر ولوا وجوههم شطر إيطاليا تدفعهم المطامع الجريئة والامال العريضة ويضدهم ضعف الحكم وانتشار الفوضى في إيطاليا وما حولها من جزر -

ولم ينقض النصف الأول من القرن الحادي عشر حتى أصبحت مقاليد الأمور في أيدي النورمان وأصبحت سياسة إيطاليا رهن إشارتهم وكان نفوذ المسلمين في هذه الآونة قد بدأ في التقلص والاصحلال فساعدهم ذلك على نشر نفوذهم في تلك الميساطق واستولوا على جزيرة صقلية ووصلوا مدينة « بالرم » عام ١٠٧١ م (٤٦٤ هـ) وقد ثبت المسلمون في قتال النورمان بباب الأنطال وأظهروا من ضروب البسالة والشجاعة والاقدام ما أذهل الألباب - بعد أن بعض الحوة دلوا النورمان على مواقع الضعف في جيوش المسلمين فشنوا عليها الغارات تلو الغارات حتى وقعت مدينته « بالرم » في أيديهم بعد حصار عنيف دام خمسة أشهر -

وفتح النورمان بعد ذلك « سراقوسة » وسلم أهل « كاسترو جيوفاني » الحصن لهم وفي عام ١٠٩١ م (٤٨٤ هـ) لم يبق للعرب في الجزيرة الا « بوترا » و « نوتوا » فانتقلنا الى النورمان بتوقيع إحدى المعاهدات بين الطرفين وبذلك أسدل الستار على حكم المسلمين في هذه الجزيرة -

وقد أفرم كثير من ملوك صقلية بالثقافة العربية فراما شديدا وسهم الملك روجر الأول المتوفي عام ١١٠١ م بالرغم من انه كان

حسرا لا غير مفعف فانه اسما ن يكثر من المسلمين في حسم اكثر به
الماء في جيسه وتكمل العلوم العربيه برعايته فقرب الفلاسفة
الشرفيين والمتخفين والاطباء .

وقد به روجر الثاني اياه في حب العربيه وكانت جيته مزينة
بالحروف العربيه وظل الزى الاسلامى شائعا حتى ولاية حفيده ولیم
الثاني ١١٦٦ وقد شاع ابن جبير النساء النصرانيات في « بانرم »
في ذلك العهد خارجات في ازياء المسلمين ولدسا من عهد روجر
الثاني أقلم النقود التي تحمل تاريخا مكتوبا بالارقام
العربيه ١١٣٨ .

أما مردريك الثاني فقد استعان كذلك بجهود العرب المسلمين
واستدعى أهل اختصاص من مصر لأجراء التجارب في ييض النعام
وحصائنه وتفتيشه بحرارة الشمس وفي عام ١٢٢٣ وصله من
السلطان الأشرف الأيوبي آلة بدعة فيها أشكال الشمس والقمر وقد
رتبت بصورة تتعين بها الساعات في مواعيد دورانها فأرسل
الامراطور مقابل ذلك دبا وطاووسا أبيض ادهشا الدمشقيين كما
ادهشت معاصريهما أهل صقلية الزرافة التي وصلتهم من مصر .

وانشا جامعة نابولي عام ١٢٢٤ وهي أول جامعة اوروبية تأسست
ببراعة خاصة وقد أودع فيها مجموعة من المخطوطات العربيه النفيسة
وجملة من الكتب التي أوصى فردريك بترجمتها الى اللغة العربيه .

وقد قامت جامعة نابولي بنور كبير في نشر الثقافة العربيه
في الخارج .

الفصل الثالث

أثر ثقافة المجتمع العربي في أوروبا

يلج المسلمون منذ العصور الإسلامية الأولى دوجة كبيرة من النبوع العكرى والنماء العقلى وعندما بلغ العرب أوروبا وجاسوا خلاله ديارها كان لهم أثرى أثر فى الفكر الاوروبى والمضارة الغربية وقد كان هذا الاثر متجلبا تارة فى العلوم وتارة فى الفسالك ومرة فى الموسيقى والشعر ومرة فى هندسة البناء وما الى ذلك ، وجدير بالذكر ان كتاب « احصاء العلوم » للفارابى كان ذا قيمة كبيرة عند المشتغلين بنظرية الموسيقى عند الاوروبيين وقد اشار « فارمر » الى هذه الحقيقة وأضاف الى ان منعة الكتاب الحقيقية انما هى فى توجيه انتباه الغربيين الى العلوم العربية التى آقبل عليها طلاب المعرفة منهم وجعلوا فى تحصيلها والاستفادة منها ، أما ابن سينا فقد تأثر به كثير من معكرى الغرب وعلى رأسهم « حدماليوس » رئيس ديوان الترجمة فى أسابيا الذى اعجب من ابن سينا براهيته عن وجود النفس ورموزه الفلسفية . أما ابن رشد فقد سماه دانتي « الشارح الكبير » والمشهور ان مدرسة « بادوا » بايطاليا كانت تسعى الى مدرسة « ابن رشد » وان سيجر دو يرابان كان زعيم المدرسة الرشيدة بايطاليا ابان القرن الثالث عشر . ويعتبر ابن البيطار « توفى سنة ١٢٤٨ م » أشهر علماء النبات والصيدلة فى الاندلس وقد رجع الى مؤلفاته فى هذه المادة عند كثير من علماء الغرب .

ومن أشهر مؤلفاته كتاب « المختصر فى الأدوية المفردة » وكتاب الحامع فى الأدوية ويعتبر هذا الكتاب الأخير أعظم كتاب فى العصور الوسطى من نوعه فقيه تجد عرضا لنحو ١٤٠٠ مادة منها ٣٠٠ مادة بينها نحو ٢٠٠ نبات أما عدد المؤلفين الذين أورد الكتاب

ذكرهم فيبلغ نحو مائه وحسين مؤلفا كما أن التصوف الاسلامي في أوروبا ويكفي أن يذكر متصوفا عربيا مثل ابن عربي ولد في مرسية عام ١١٦٥ ولحق في أنشيليه حتى عام ١٢٠١ م وكان له أثر كبير في حركات الفكر العربي في أوروبا إذ كان رائدا من رواد المدرسة الاشراقية التي آمنت بأن الكون جوهر فرد كما آمن به يشعور الألوهية ووحدة الوجود *

كما اعتد ابن عربي بأنه ليس هناك الا مرشد واحد للمتصوف الحقيقي وهو النور الداخلي ومن هنا فهو يجد الله الحق في كل الديانات *

وأثرت هذه المدرسة في حلقات الصوفية في فارس وتركيا كما أثرت في مدرسة فلاسفة النصارى للعصور الوسطى أى المدرسة الأعسطينية وفي أفراد منها مثل *

دس سكوتس Duns Scotus

ودوجر باكون Roger Bacon

وريموندل Raymond Lull

وقد فاض سيل المعارف الأندلسية في القرن الثاني عشر على أوروبا كلها حتى أن بعض الكلمات العربية شاعت في المعارف والعلوم العربية ومثال ذلك كلمة شراب Syrup قيل أنها أخذت من كلمة شراب العربية أما لفظه صودا * التي كانت يستعمل في اللغة اللاتينية في العصور الوسطى بمعنى وجع الرأس فمستفاد من كلمة الصداع العربية ومن الألفاظ الكيميائية Alcohol وهي مستمدة من كلمة الكحول العربية والتوني Tatty وهي مستفاد من كلمة التوتياء العربية والامبيق Alembi وهي مستمدة من كلمة الامبيق العربية *

وفضلا على هذه الألفاظ العالمية فقد ظهرت في اللغات الأوروبية

مجموعة أخرى من الألفاظ ذات الأصل العربي في شتى بواحي الحياة والاحتماع ومثال ذلك كلمة القطن Cotton أو الحرير الموصل mualin الحرير الغري Gawse أو الحرير الدمشقي Damas أو الحلة المراكشي morocco أو الجبة Jupe أو العطر Attari أو

الشرباب Syrup أو الأرز Rice اللبمون Lemoa أو السكر Agrua
أو العنق Fouda والعطيفة Al catifa والرطل Arratel والعباء

Gadam وقد أشار العالم أنيسر إلى أن عصر النهضة مدين
للحصارة الأندلسية قبل الحصاره الإيطالية التي أتت في أعقابها
وذلك لأن عصر النهضة أو الرنساس لم يكن عصر جديد للفنون
الأغريقية إنما كان عصر تجدد في الحياة العملية والمراقف
الصناعية والتجارية .

ومن الحقائق الواضحة أن أبناء أوروبا كانوا يتعلمون فنون
الأسام من العرب في الأندلس بل أنهم نقلوا بعض الألفاظ العربية
إلى لغاتهم الأوروبية ومن ذلك كلمة Late أى العود وكلمة نكر
Naker من التقارة وكلمة Reder من الرباب وهم جرا وقد
شاع في أوروبا كذلك الفن العربي في النعش وأطلق عليه الغربيون
Arabesque بل أن بعض القلاع التي شيدها أهل الغرب في أوروبا
كانت تحمل الطابع الإسلامي العربي ولاسيما بعد أن أطلقت الحروب
الصليبية التي دارت بين الشرق والغرب أهل أوروبا على فنون العرب
وأساليبهم في بناء القلاع والحصون .

أما في ميدان الطب فقد سبق المسلمون الأندلس في وصف
أمراض الخدام وشرح مرض الجدري والحصبة وعلاجها وعلاج أمراض
العين ، بل أنهم توصلوا إلى معرفة العلاج النعساني ومن ذلك أن
ابن سينا دعى لعبادة فتى مريض لم يهتد الأطباء إلى علته فأمر
بأسدغاه رجل من عرفاء المدينة وسأول به الفتى يجلس نبطها
ويوقب وجهه وطلب من العرب أن يسرد أسماء الأحماء في المدينة
فسردها حتى جاء ذكر حى منها فازداد نبض الفتى ثم سأله أريدك
البيوت التي في الحى فازداد النبض عند واحد منها فسأله عن في
البيت من العتيان وقال لأهل الفتى . زوجه تلك الفتاة فهذا هو
الدواء .

ومنى هارون الرشيد المدارس وبيوت المرضى والصيديات
وأباح الانتفاع بها لعامة الناس وكان طبيبه جبرائيل بن عبد الله
من بختيشوع مكرما لديه وفي أيامه ترجمت كتب الحكمة والطب

تفحص الأطباء في مدينة بغداد ومنع من لم يكن أهلا من مزاوله هذه المهنة . وأنشأ المأمون ندوة علمية وجمع إليه العلماء من كل صوب وحنوب وبدل من الأموال مالا يعدل لسراء الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية فكانت بغداد حينئذ عروس الدنيا ودار العلوم وميدان الأدب وقيل أن العلماء والمدرسين فيها وأنحاء بنوها العلمية بلغوا لذلك ستة آلاف . وكان يوحنا ماسويه من مشاهير الأطباء في العصر العباسي وقد توفي عام ٢٤٢ هـ بعد أن قام بجهود كبيرة في ميادين الطب . والطريف أن الأطباء العرب توصلوا إلى معرفة بعض الآداب التي ينبغي أن تتوافر في الطبيب مما جعلها الأطباء في العصر الحديث دستوراً لا يغيرون عنه وبيان ذلك أن المتوكل أراد امتحان أحد أطبائه ويدعى ابن اسحاق ليعرف مكانه من صدق الخدمة فخلع عليه وأقطعته بما يساوي خمسين ألف درهم ثم طلب منه أن يصف له دواء يقتل به عدواً له لا يحب ذكر اسمه - فأجاب ابن اسحاق : يعصوي أمير المؤمنين فاني لم أتعلم غير الأدوية النافعة ولم يخطر بالي أن يطلب مني خلاصها . ولما لم يظهر منه بطائل أخافه وتهمدته ثم أرسله إلى السجن في بعض القلاع وتركه مدة وبعد ذلك أحضره وأعاد عليه الطلب فأصر على امتناعه . فأمر الخليفة بأحضار السيف والسطح وقال تقتلك إن لم تفعل فقال ابن اسحاق . إن لي رياء يأخذ حتى غدا في الموقف الرهيب . فتسمم المتوكل وقال له : « طب نفسا فانا انما أردنا امتحانك والثقة اليك » فقبل ابن اسحاق الأرض وشكر . وبعد أن هذا روعه سأل الخليفة ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيت من صفق الأمر منا في الحالين فقال . شسيتان الدين والصناعة أما الدين فانه يأمرنا بالصطناع المعروف حتى إلى أعدائنا ، وأما الصناعة فانه موصوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكداً بيمان مغلظة ألا يعطوا أحداً دواء قتالاً أو مضراً فقل الخليفة انهما شرعان جليلان وأنعم عليه فحمل انعامه وخرج وهو أحسن الناس حالاً وأجمعهم بالاً .

وقد اقترنت بحوث العرب في الطب ببحوثهم في الكيمياء فاستعاد الأوروبيون منها استفادة كبيرة . ونقلت كتب الرازي كما نقلت كتب جابر بن حيان ، ومنها تلقى الأوروبيون تقسيم المسود الكيمائية إلى نباتية وحيوانية ومعنوية . والبيروني فصل السبق

الى درس السوائل في عيون الارض ومرتفعات الجبال ويعتبر الرازي
أول من وصف حامض الكبريتيك والكحول فقال ان الاول يستخرج
بتحصر كبريت الحديد والثاني يستخرج بتعطير المواد اللبية او
السكرية المختمرة . ويقول المستشرق الكبير «جوستاف لوبون» انه
لولا ما وصل اليه العرب من نتائج واكتشافات لما استطاع لافوزيه -
أبو الكيمياء الحديثة - أن ينتهي الى اكتشافاته .

واذا كانت مدرسة سالربو قد أصبحت أول جامعة للطب في
أوروبا فإن الفصل يرجع الى الطب العربي فيما أحرزته تلك المدرسة
من شهرة نظرا لما كان يدرس فيها من علوم عربية وكان أطباء
المسلمين يحضرون إليها من شتى البلاد الإسلامية لالقاء المحاضرات
وبها .

والطريف أن الأطباء العرب كانوا يرشدون الى انواع الغذاء التي
يجب أن يتيادها الانسان في الصحة والمرص فالرازي في كتاب
« منافع الأغذية ودفع مضارها » يذكر كثيرا من ألوان الطعام وطرق
عملها ومزايا أو مضار كل لون - وابن سينا ينصح بتعديل الطعام
في كمية بحيث لا يزيد أو يقل عن اللازم - وينصح ابن سينا كذلك
بعدم دخول الحمام دفعة واحدة والجسم معجده أو الخروج منه دفعة
واحدة نظرا لما تسببه الحالتان من نوازل وكذلك يرى عدم الافراط
في شرب الماء نظرا لما يسببه ذلك من عسر الهضم وتخفيف عصارة
الكبد والعصارات المعدية .

وقد نصح الأطباء المسلمون بالاعتدال في تناول الطعام مخافة
التخمة والمرض بل ان الرممول الكريم تنبه الى ذلك قبل أربعة
عشر قرنا مما جعله العلم الحديث في أوروبا اليوم دستورا للعلاج
فقال صلى الله عليه وسلم : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا
لا نشبع » وقال صلى الله عليه وسلم : « البطنة أصل الداء والحمية
أصل كل دواء » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا : « لا تشبعوا من
الطعام ثم تاكلوا عليه فإن ذلك أصل كل داء » .

وقال عمر بن الخطاب : « اياكم والبطنة في الطعام والشراب
فإنها مفسدة للجسم مورثة للسقم مكسلة عن الصلاة » وعليكم
بالقصد فإنه أصلح للجسم وأبعد عن السرف » . وقال عابر رضى

الله عنه كذلك محذرا من اكل اللحم : « اياكم وهذه المجارر فان لها ضراوة كضراوة الحمرة » . وعنى عن البيان أن كثيرا من الاطباء يتصحبون مرضاهم في بعض الأحوال المرضية بالاعتناع عن تناول اللحوم لان تناولها يضاعف المرض ويفسد العلاج .

وقد حارب الاسلام المسكرات بكافة أنواعها وجاء العلم الحديث فأمن بهذه النظرية وارجع كثيرا من الامراض مثل الطحال والكبد والمعدة الى تناول الخمر والمشروبات الروحية .

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن المؤتمر الدولي التاسع عشر لمكافحة المسكرات الذي عقد في مدينة (أفرس) ببلجيكا كما اثبتت شيعة من المؤتمرات التالية المتعلقة في السنوات التالية صلح الدعوة المحمدية وحكمة الاسلام في تحريم الخمر اذ وقع احداءهاء المؤتمر الدولي وقال ان جزيرة ايسلندة - وهي من أشبه البلدان بردا - كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطي المشروبات الروحية فكثرت بينهم الوفيات الى حد اقلق بال ولاء امورهم فالتوا لجنة لتبحث في الامر وتعرف أسبابه فاثبتت هذه اللجنة أن كثرة الوفيات ترجع الى أن القوم يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر مما يجعل يوماتهم لانتهاء الحرارة تدريجيا من أجسامهم .

كما نهض عضو آخر من أعضاء هذا المؤتمر وذكر أن الدكتور سكوت ورفاقه حين ذهبوا في منطاد لارتباد القطب الجنوبي أدرك سكوت سوء تأثير الخمر فأوصى أصحابه بالامتناع عن شرب الخمر لئلا يفقدوا مناعة أجسامهم فلا تقوى على تحمل البرد الا أن بعض رفاقه لم يستمعوا الى نصيحته وتجرعوا بعض أقذاح من الخمر فكانت النتيجة كما دونها الدكتور سكوت في مذكراته أن الذين اتبعوا سبيله واجتنبوا شرب الخمر بقاوا نجوا من الموت دون غيرهم .

وقد أنشأ العرب كثيرا من المستشفيات للعلاج وأمنوها بكافة المعدات اللازمة للمرضى من أسرة وأدوات طبيسة وكانوا يسعفون الجرحى والفرقى بالعلاج ويعرفون وسائل تخفيف الحروق وما إليها وقد عرّفوا الفرق بين الجرح البسيط والجرح الجسيم بما ورد ذكره في القرآن الكريم فهو يقول تعالى في كتابه العزيز : « ان الذين

كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما مضت جلودهم يدلناهم
جلودا غيرها لينرقوا العذاب . »

والحكمة في ذلك أن أعصاب الألم توجد في الطبقة الجلدية
وأما الأنسجة والعصلات والأعضاء الداخلية والأحاساس فيها ضعيف
ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث
ألما شديدا بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة
لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألما كثيرا فاقه تعالى يقول لنا إن النار
كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب تجدد ، كي يستمر الألم بسلا
انقطاع وينوقوا العذاب الأليم .

وكان أبو القاسم الزهراوى فى طبعة جراحى المسلمين وكانت
تعاليمه ومعوماته ووسائله وآلاته أماسا متينا بنيت عليه صروح
الجراحة الحديثة . ويبدو أن أبا القاسم أول من ربط انشربان لايقاف
التزف بخيوط من الحرير ، وأول من أخاط الأعضاء بخيوط مصنوعة
من الأمعاء ، وأوتار العود ، وأوصى بجعل الطرفى السفلى أعلى من
الرأس حين اجراء العملية الجراحية على البطن فسبق بذلك العالم -
تران دى لايبورغ - الذى اخترع الوصفة التى تحمل اسمه واشتهر
من جراحى المسلمين كذلك مروان بن زهر وكان كتابه فى الطب
موضوع التدريس فى مدرسة باريس الطبية يقول البروفسور يوشو
« ان ابن زهر أول من أهتم بدرس العظام والكسور وقد اتبعه
التشريح . لان ما تركه من وصف الدماء فى الصلور وفى المعدة
يدل دلالة صريحة على معرفته اعلم التشريح .

وقد استخدم بعض الأدوات الطبية التى تستخدم فى الجراحة
ومثال ذلك « كلبة الاضراس » وكانت تعلق بها الاضراس ومكاوى
الطحال والرأس والنشاب مجرفة الاذن وأوعية المراهم والمباضع
ونحو ذلك .

واشتهر من أطباء العميون عند العرب أبو الفضائل بن النافذ
وهو مؤلف كتاب « المعربات » وخليفة بن أبى المعلسن الحلبي
الذى وضع كتاب « الكفاى فى الكحول » و « صلاح الدين بن يوسف
الكحال » وقد وضع مؤلفا فى عشرة أجزاء أطلق عليه « نور العميون
وجامع الفتوى » .

ويبدو أن لقمان الحكيم أقدم طبيب عربى اشتغل بأمراض

الأسنان وجاء بعده جديده وكان الحارث وابنه النضر والتميمي ممن بحثوا في الاسنان وطبها في عهد الرسول وقد عنى الاسلام بالقلم وطيارته وبلاسنان ونظافتها والحديث للرمول الكسريم يحث فيه على نظافة الاسنان ومسحها بالسواك عند كل صلاة . وعرف العرب شد الاسنان بالذهب . وكان عثمان بن عفان ممن شدوا أسنانهم بحيوطة . ومما يدل على اهتمام العرب بأسنانهم أن ثريا بنت علي بن عبد الله . كانت تضع الخواتم في أصابعها العشر وقد صممت بأحد خواتمها أسنانها فكسرت ثيثارها العلويتان حتى كادت تحطمهما فنظم عمر بن أبي ربيعة بعض إبيات في هذا المعنى وقال :

هابال صنيك أم هابال كسرهما أهكذا كسرا في غير ما بأس .
انقعة من فتاة كنت تألفها أم بالهاوسط شرب صلعة الكأس

وقد تخصصت بعض الطبيبات عند العرب في أمراض النساء والولادة مثل أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها . وقد طار صيتهما في آفاق الإنطس . وكانتا تعالجان نساء الملوك والوزراء .

أما الحميات فقد عرفها المسلمون وعملوا على علاجها وبرز أطباء عرب مسلمون في مداواتها ووضعها المتنبي في بعض أشعاره واكتشف ابن نفيس الدورة الدموية الصغرى وفهم تركيب الرئتين والأوعية الشعرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية وشرح الدورة الرئوية شرحا كافيا ، ونفى الرأي القائل بأن القلب يتقذى من الدم الموجود في التجويف الأيمن ، وكان اكتشاف ابن نفيس للدورة الدموية الصغرى قبل اكتشاف الأطباء الإيطاليين لها بثلاثة قرون .

ويعتبر ابن الهيثم من أول العلماء الذين أشاروا إلى الحيوان المنوي مناهضا بذلك آراء أطباء عصره وعلماء زمانه ، فقال أن النطفة تخرج من جميع أجزاء البدن والحجة في ذلك مشابهة المولود للوالدين مشابهة كلية فدل ذلك على أن كل عضو أرسل إلى النطفة قسطه وبصميه ولو أن النطفة جسم واحد متشابه في نفسه لما تولدت منه

الأعضاء المختلفة لذلك سماها الله سلالة والسلالة على وزن « فعالة » وهو ما يسلم من البدن ، ويقول ابن الهيثم عن النطفة ان فيها حيوانا صغيرا .

واتقن العرب فحص البول وجلسوا له وكان يوحنا بن ماسوية المترجم لهارون الرشيد ذا دعابة وكان أطيب ما يكون مجلسه في وقت نظره في قواوير البول التي يسمونها « العسطرة » واشهر أبو قريش عيسى طبيب المهدي بذلك ، وقال أحد الشعراء في ثابث ابن قرة الطبيب :
الذي اشتهر بفحص البول هذه الابيات .

مثلت له قارورتى قرأى بها ما اكنن بين جوانحي وشقائي .

يبدو له الدواء الحقى كما يدا للعين رصراض الغدير الصافي .

قال العلامة « جوتيه » وللعرب في ميدان الاختراعات شيء لا بأس به بالسبب لمصورهم وقد وجد في كتاب عربي قديم لم يصل الى اللغات الاوربية ان العرب عرفوا طريقة عمل الجليد الصناعي ولم تعرف أوروبا سر الصناعة في النصف الاول من القرن السادس عشر وأدخلوا على أوروبا الورق الممول من القطن والورق الرخيص الثمن وكان الناس من قبل يكتبون على الردى وهو غال جدا ، وكانت معامل شاطبة في أسبانيا تصدر بضاعة الورق الى أوروبا العربية على حين كانت أوروبا الشرقية تباع ورقها من بلاد الشرق الادنى مباشرة . وأضاف جوتيه الى ذلك قوله : « ان العرب علمونا صنع الكتاب وصنع البارود وعمل ابرة السفينة فعلمنا ان ن فكر ما اذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المحطات التي وصلت اليها من المدنية العربية » .

عرف العرب آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالقطوع وقطعوا شوطا كبيرا في الميكانيكات ، ولما بحث الرشيد العباسي الصناعة المتقاة الكبيرة الى شارلمان تعجب منها أهل ديوانه ولم يستطيعوا ان يعرفوا كيفية تركيب آلاتها على ما حققه ذلك « سيديليو » ومع ذلك لم يكن في عصر العباسيين أهم من مهنة الفلاحة وأظهر العرب بمهارتهم مزايا قواكه الفرس وأزهار اقليم مازندران وقال شارل سنيوبوس Charles Sagnobos

تربيع الحضارة ان امراء العرب جروا على عادة اسقاء الارض بفتح
الترع - فحجروا الابار وجازوا بالمال الكثير من عثروا على بتايح
جدينة ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ونظم العرب
ديوان المياه التي كان يرجع اليه في مسائل الري - وليس من
شك في ان هذه الاصناف التي استخدمها العرب من اول الوسائل
التي يعتمد عليها اهل الغرب في تنظيم هذا المرفق الحيوي من
مرافق الحياة وذكر «ريسون» ان العرب احرزوا فضل السبق
دون غيرهم في مفسار التجارة ورقوا الصناعات البحرية ووضعوا
قوانين حقوق الملاحة وضبطوا التجارة بمنسك الدفاتر وشرحوا
الكعالة وانشؤا المصارف للفراء .. ويضيف العالم «ريسون»
قوله :

« وكنت تراهم حيث نزلوا يمهدون السبل ويمهرون المرافىء
والفرضات ويصلحون الفائق والرياطات - ويرتبون سير القوافل -
وكانت المدن الاسلامية اوساطا تجارية كبرى - وكان اهل بيزا
الايطاليون ينزلون مدينة «بجاية» في الجزائر حيث يتعلمون صنع
الشمع ومنها نقلوه الى بلادهم وإلى أوروبا »

ويقول العلامة سنيوبوس : « وكان عبيد الرحمن الثالث
الاموي على اتصال دائم بامراء اسبانيا وفرنسا والمانيا وممالك
الصقالية - وكان القصر الملوكي في « تولوزة » من بلاد فرنسا
صورة من صور قصور الخلافة في قرطبة يتبارى فيه الشعراء
وتقوم فيه للاداب سوق ، ولا انتقل أحد امرائهم ليمتولى عرش
فرنسا عام ٩٩٩ م ادخل ما اخذ عن العرب من فنون الحضارة
وفي الحروب الصليبية تعلم الفرنسيين صنع الورق من
دمشق من أسيرين قضيا زمنا في هذه المدينة فلما عادا الى بلادهما
نشرا فيها هذه الصناعة وتبع العرب في ميدان الرياضيات كذلك
وكانوا اول من تبنى الى لفظ « صفر » التي كان لها أثر كبير في
الميدان الرياضي - ولم يعرف الغرب استعمال الصفر الا في القرن
الثاني عشر واشهر رياضي هو الخولزمي الذي عاش في القرن
الحادي عشر واقتبس العربيون كثيرا من نظرياته وقواعده واشهر
مصنفاته الحساب والجبر وقد نقل الى اللغة اللاتينية وقال ابر :
« ان فكرة الصفر في صفر لحاتم جاء فيه :-

ترى ان ما اهلكت لم يكن خدنى . . وان يدري مما تجلت به
 صفر اما في الهندسة وعلم المثلثات فقد ترجم العرب كتابا ليدس
 (أبو كليلد) في الهندسة وهذه الترجمة هي التي نقلها الاوروبيون
 الى اللاتينية في القرن الثاني عشر وقد اضاف العرب الى علم الاغريق
 في هذين الميدانين اضافات كثيرة وتعمقوا في ابحاث المخروطات
 وحساب المثلثات وكتب ابن الهيثم رسالة اطلق عليها « شكل بنى
 موسى » وكتب البيروني كتابا في استخراج الأوتار من الدوائر .

وقد عمل بعض المهتمين العرب في هندسة كيسة
 « بوترادم دي باري » المشهورة في باريس ، ان من يلقى نظرة
 على المساجد والعصور وعلى غيرها من الآثار العربية من متقولها
 وغير منقولها يشهد بانها نسج على غير مثال وان الإبداع ظاهر
 محسوس . وقد استخدم المهندسون العرب في صنعها كل ملكاتهم
 الفنية ومواهبهم الفريضة . وقد قال « همبولد » في معرض
 حديثه عن الحضارة العربية : « ان العرب بلغوا في العلم العمل
 درجة لم يكن يعرفها أحد من القدماء » .

وقد اوحى الصانع المسلمون الى صناع العرب طريقة جديدة
 في زخرفة جلود الكتب ففي العصور الوسطى كان الجلدون
 الاوروبيون غالبا ما يزخرفون جلود الكتب بطبع رسوم عليها
 مستعربين في ذلك بمكائيس معدنية وقد تيسر بهذه الطريقة الوصول
 الى موضوعات زخرفية جلييلة الاثر فبعد ان كبرت المكائيس وزادت
 زخارفها كمالا وابتاعا قطاع استعمال زخارف دقيقة الصنع
 وفيها حاديات (كنارات) ورسوم متكررة وتسمى زخرفة غلاف
 الكتب برسوم مطبوعة بالآلات محمأة .

كانت الزخارف التي تصنع بهذه الطريقة يارزة فقط حتى بدأ
 الصناع العرب يزبنون الرسوم المطبوعة بملء أجزائها المخفضة
 بصبغات ذهبية وقد أدخل هذه الطريقة الى كوربا الجلدون المسلمون
 الذين أقاموا في البندقية وقد أثر العرب في فن التصوير في
 أوروبا فظهرت الصور المعجمة والوجوه ذات السمة الشرقية في
 الصور الايطالية منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر وظهر
 التأثير بالشرق كذلك في رسم السجاجيد الفارسية والمنسوجات

والملاسن الشرقية كما يبدو هذا التأثير في ادخال الحيوانات غير المعروفة في الغرب مثل الفهد والقردة والببغاوات وكذلك في رسم المناظر الطبيعية وأنواع النباتات الموحدة في الشرق عند الغرب بل أنهم أدخلوا الى أوروبا عن طريق أسبانيا والبرتغال القطر والشمش والكوسا والقاصوليا ، وقصب السكر ، والزيتون والبطيخ الاصفر ، النسي ، والياسمين كما تعلموا من العرب بعض فنون الري .

اما السجاد الذي يعتبر الآن شيئا لا غنى عنه فقد جاء الى أوروبا من الشرق وكان من الكماليات التي لا يحصل عليها غير الأغنياء والموسرين - والسجاد قديم جدا في الشرق سواء منه الناعم الملمس الذي يشبه نسيج التهامسري tapestry أو النوع ذي الخيوط الرخوة المعتادة في النسيج - والتي ينتج منها سطح له وبر يشبه القطيفة . وتدل رسوم السجاد الشرقي في الصور الايطالية على انه كان معروفا في أوروبا منذ القرن الرابع عشر على أقل تقدير ، وفي القرن السادس عشر أصبح السجاد سلعة غالية في الاسواق الأوروبية .

وبرع العرب في الجغرافيا . واشهر جغرافيه العرب هو الاداريس - وقد نقل ما أله في الجغرافيا الى الحقبة اللاتينية . وقد تعلمت أوروبا علم الجغرافيا منه في القرون الوسطى وخريطة الاداريس المحتوية على منابع النيل والبحيرات الاستوائية التي لم يكتشفها الاوروبيون الا في العصور الحديثة من ابرع الخرائط الجغرافية وهي تثبت ان معارف العرب في جغرافية افريقية أعظم مما كان يظن كما برع في علم الجغرافيا القزويني وباقوت الحموي وقد عاشا في القرن الثالث عشر من الميلاد وكتاب ومعجم البلدان ، ليافوت الحموي هو معجم جغرافي كبير باسماء بلاد الاسلام . وقد ذكر أبو الفدا (١٢٧١ - ١٣٣١ م) العالم العربي الجغرافي لاسماء ستين عالما جغرافيا مشهورا من الذين ظهروا قبله .

ويعتبر القزويني المتوفى عام ١٢٣٨ م من أبرع علماء العرب في التأريخ الطبيعي حتى أنه لقب بـ (بلين) للمشاركة وكانت طريقة القزويني قائمة على الوصف كما صنع بعده بوفون ،

وقد حل بعض علماء العرب اسباب انقراض ايريس وتعرضوا لاسباب وجود الحبال والوهاد ، والرمعات والمنخفضات على النحو الذي لجأ اليه علماء الغرب فيما بعد ومن ذلك ما أشار اليه ابن سينا في حديثه عن منسأ اجبال اذ يقول أن الجبال اما تكون قد نشأت عن ارتفاع في مشرة الارض بفعل احلى الزلازل الشديدة مثلا واما أن تكون قد نشأت عن احداث المياه مع الزمن ، للاودية تتجتها الصخور اللينة وبقاء الصخور الصلبة قائمة - ويستدل ابن سينا على هذا بما يساعد على اكتر الصخور من آثار الحيوانات المائية وغيرها - وعند ابن سينا أن النباتات المنحلة والاحمال التي تأتي بها المياه هي مصدر ما يرى على الجبال من التراب .

وقد قال مسيو رينار : « ان البوت الكبير مدين لابن سينا ، وسال توما مدين في فلسفته لابن رشد . »

ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يكتب بما في كتب العرب فعلى كتب العرب وحدها عول روجر بيكون وليومارد البيزي وريمون لول وسبان توما . وكانت ترجمت كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوروبا نحو ستة قرون ، ونظام المعيدتين المعمول به الآن في مختلف جامعات العالم الحديثة عرقه العرب من قبل في مدارسهم وجامعاتهم ، فكلموا بمعنون معيدا لكل مدرس حتى يعيد على الطلبة ما لقاها عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج الى الشرح . وقد ذكر الذهبي في تاريخ الاسلام أن وظيفة المدرس كانت من أبرز الوظائف في الدولة الإسلامية وكان السلطان يخلع على صاحبها كما يكتب له توقيعا من ديوان الانشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس - وقد أصبحت وظيفة المدرس في الجامعة موضع الاجلال والاكبار في أوروبا بعد ذلك . وان الكتاب الاوربيين يقررون في أكثر كتبهم ما امتازت به الجامعة الاوروية الناشئة في العصور الوسطى من تقدير لكافة المدرس الجامعي .

ومن المعروف عن نظم التعليم الإسلامية أن الطالب كان اذا أتم دراسته وتأهل للافتاء والتدريس اجاز له امتداده ذلك وكتب له اجازة يذكر فيها اسمه واسم شيخه ومنهجه وتاريخ الاجازة

ولعل الجامعات الأوروبية التي نشطت في أواخر القرن الثاني عشر أخذت هذا النظام الإسلامي وقررت منح الطالب ترخيص التدريس وكانوا يسمونه *Licentia docendi* وهو يشبه إلى حد بعيد ذلك الترخيص الذي كان يمنحه الشيخ لتلميذه في العصور الإسلامية .

واشتهر في القرن العاشر الفلكي ابن يوسف الذي اخترع جهازا لقياس ارتفاع الشمس في القرن الحادي عشر اشتهر أبو العباس الفرغاني بإبحانه القيمة عن الكواكب والأبراج كما اخترع ابن البركلي الآلة التي تحدد مكان الكواكب وارتفاعها وقد سماها « الصفحة » وعمل علماء العرب على تحسين هذا الاختراع الخامس عشر ، وكان الفلكي أبو عبد الله محمد الباقاني قد فر عام ٨٢٩ هـ بعض الظواهر الطبيعية الفاضة مثل الكسوف والخسوف ومعاقب العصور واكتشف حركات النجوم والقمر وحدد مواقع الكواكب والأبراج بدقة مذهلة أثارت إعجاب العالم الغربي ريجو مونتاقوس في القرن الخامس عشر . ومن الطريف ان تذكر أن عالما عربيا هو قطب الدين الشيرازي المتوفى عام ١٢١١ م استطاع أن يطل قوس قزح تعليلا صحيحا فقال : « ينشأ قوس قزح من وقوع أشعة الشمس على قطرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو عند سقوط الأمطار وحينئذ تعاني الأشعة انعكاسا داخليا وبعد ذلك تخرج إلى عين الرائي » .

وكان العرب أول من وصل إلى اكتشاف نسب حقيقية بين وزن الأجسام المختلفة مع فقدان الآلات التي تسهل عليهم هذه المهمة . فوجد البيروني المتوفى نحو ١٠٤٨ م يستخرج الثقل النوعي للأجسام بأن يزن الجسم ذاته في الهواء ثم يزن الجسم ذاته في الماء بعد أن يدخله في وعاء مخروطي الشكل مثقوب على علو معين وبعدئذ يزن الماء الذي فاض من الوعاء بسبب ادخال الجسم فيه ، ومن كمية الماء الفائضة كان يعرف حجم الجسم ثم يقسم وزن الجسم في الهواء على وزن الماء الفائض فيجهد الثقل النوعي لمادة الجسم الموزون .

وقد وصل ابن الهيثم في القرن الحادي عشر للميلاد يعلم البصريات إلى أبعد درجات التقدم وقد اخذ كبلر Kepler

منه مطبوعاته في الضوء ولا سيما ما يتعلق بالانكسار الضوئي في الهواء
وقال عنه المؤرخ سارتون Sartan أن ابن الهيثم أعظم عالم
ظهر عند العرب في الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى،
ومن علماء البصريات القليلين في العالم .

ولابن الهيثم بحوث وافية في قوى تكبير العدسات ويرى
كثيرون أن ما كتبه في هذا الصدد مهد السبيل لاستعمال العدسات
في إصلاح عيوب العين .

وقد استخدم العرب البوصلة - وساهموا في اختراعها
واختراع الآلة المغططة ومن الألفاظ التي استعملها العرب ونقلت
إلى اللغات الأجنبية كلمة « الفلاك » جمع فلوك وقد أطلق
عليها الفرنسيون Filangue وأطلق عليها الإيطاليون Fleuca
وكلمة الشباك التي أطلق عليها الفرنسيون Chebec كما
أطلق عليها الإيطاليون Scilecco

وفي القرن الثالث عشر استخدم المسلمون العرب الورق
العربي من راتى قشطالة ومن ثم انتقل إلى فرنسا وإيطاليا
وانجلترا . ويشهد للعرب على علو كعبهم في هذا المضمار ما تركوه
من مخطوطات نفيسة على ورق صقيل في غاية الروعة والجمال .

ويقال إن العرب هم الذين أصلحوا جرس الخيل في فرنسا
وذلك لأنهم كانوا يأتون على سعنهم بالجناد الأصليلة لشحن الغارات
فبقى جنسها في فرنسا منذ ذلك الوقت ، ولا يزال حتى الآن
هناك أجناس من الخيول العربية في هذه المناطق ، ويقال إن العرب
الذين نزلوا في « بروفانس » هم الذين بدعوا في استئثار شجرة
البلوط ولا تزال هناك غابة تسمى « غابة المغاربة » وقد ذكر
« ريساس » في كتابه « المنتخبات العربية » أن ملوك أوربا كانوا
يستخدمون ملابس عربية وقال أنا نعرف منسوجات كثيرة من
منتجات العرب من النوع الذي يسميه ابن خلدون « الطراز »
وأول ما أذكره « الطليسان » الذي كان يرتديه قياصرة ألمانيا
في تنويعهم فقد كان هذا الطليسان يشتمل على كتابات
عربية منسوجة بخيوط الذهب .

وقد ظهر أثر المسلمين في الأدب الأوربي واضحاً جلياً ونخص بالذكر « بوكاشيو » و « دانتي » و « بترارك » الإيطاليين ، و « تشوسر » الإنجليزي و « سرفانتيز » الإسباني وفي عام ١٣٤٩م كتب « بوكاشيو » حكاياته المسماة « الصباحات العشرة » ، وحدا فيها حذو ألف ليلة وقيلة التي كانت شائعة في هذه الفترة من التاريخ وقد ضمنها مائة حكاية من طراز حكايات الليالي العربية ، اقتبس منها « ليسنج » الألماني إحدى مسرحياته وهي « ناتان الحكيم » .

وآلف « تشوسر » قصص كاتربري على غرار هذه القصص ومنها قصة السيدة التي استمدها من ألف ليلة وليلة العربية .

وربما كانت صلة « دانتي » بالعربية أعظم من صلة « بوكاشيو » و « تشوسر » فقد عقد بعض المستشرقين مقارنات بين الجحيم عند « دانتي » ووصف النار في « رسالة الففران » عند أبي العلاء المعري . ومن يقرأ كتاب « سرفانتيز » المعروف « دون كيشوت » لا يداخله الشك في أنه تأثر بالثقافة العربية التي كانت شائعة في عصره .

وظهرت في الأدب الفرنسي قصص تحمل الطابع العربي ومن أشهرها قصة « أوقاسين ونيقوليت » Ancassin et Nicolette واسم البطل « أوقاسين » مأخوذ من الاسم العربي « قاسم » وترجمت قصص « كليلة ودمنة » إلى الإسبانية واللاتينية في القرن الثالث عشر ، ثم ترجمت إلى الفرنسية ويجد بعض النقاد تشابهاً شتى بين هذه القصص و « خرافات لافونتين » هي الأدب الفرنسي .

وفي الأدب الأوربي الحديث ظهرت آثار المسلمين واضحة جلية كذلك فهذا هو « لورد بيرون » زعيم الحركة الرومانتيكية في الأدب الإنجليزي - ينظم قصيدة رائعة عن « روح الإسلام » . كما رحل الشاعر الفرنسي الرومانسي « لامارتين » إلى الشرق ، واستوحى بعض قصائده من سحر الشرق ونظم الشاعر الألماني « جوتة » ديواناً يرمته عن الشرق أطلق عليه « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » كما أن الشاعر « هايني » - شاعر المذهب

والابداع - استوحى الشرق في بعض قصائده ، وهالك مسرحية
انجليزية بعنوان « حسن » (Hassan) ألفها الشاعر
الانجليزى الكبير « جيمس الورى فلكر » صاحب ديوان « جسر
النار » ولا شك انها مستعدة من سحر الشرق واسماء العرب .

ويقول المستشرق الكبير « هاملتون جب »
في كتاب « تراث الاسلام » انه ليس من العلو في شيء انه لولا كتاب
« ألف ليلة وليلة » لما استطاع « دانييل ديفو » ان يؤلف رحلة
« رسالة حى بن يقظان » لان طفيل وقد ترجم هذا الكتاب عن
العربية في القرن السابع عشر من الميلاد .

ويقول الدكتور جب كذلك : ان « ألف ليلة وليلة » كانت
من العوامل التى دفعت « سويفت » الى كتابة « رحلات حليفر »
المشهورة .

وقد اثر الادب العربى في اسبانيا في الشعر الغنائى الاوربى
تاثرا كبيرا سواء اكان ذلك في الشعر المكتوب باللغة الاوربية
الرفيعة ام باللغة الشعبية الدارجة - وقد وجد الباحثون كثيرا
من وجود التبه بين الاغنية الشعبية عند العرب والاغنية الشعبية
عن الافرنج واستدلوا على ذلك من وجود (الخرجة) وهى بيتان
تتمى بهما الاغنية ولعل اول من تنه الى هذا التبه بين الشعر
الشعبى الاندلسى واغاني التروبادور فى العصور الوسطى هو
المستشرق الاسمانى (دون خوليان ريبيرا) وقد أدرك ان هناك
مشابهة شتى فى الصياغة بل فى الموضوعات التى تقوم عليها الاعانى
بين الشعر الاندلسى وشعراء التروبادور بل ان بعض الباحثين
يعتقد ان كلمة تروبادور متقاة من كلمة (طرب) العربية

ولا يستطيع احد ان منكر اثر الفنون والصناعات العربية
في اوربا عند عقد المقارنة بين الآثار العربية فى المشرق والمغرب
ولا بد من الاعتراف بان بعض الآلات الموسيقية التى شاع
استخدامها فى اوربا قد اخذت عن العرب وبعضها - مثل العود -
لا يزال يسمى باسمه العربى فى جميع اللغات الاوربية

وشاعت احوال الحفلة العربية فى اوربا وتثبتت فى شتى

المجتمعات سواء اكان ذلك من طريق العائشه أم الاتباع في الحكم
أم تبادل المتاجر . ومن الاسماء ذات الاصول العربية في مظاهر
تلك الحضارة كلمات :

قطن Cotton الزعفران Saffran الحرير الموصلى «الموسلين»
Mwslin الحرة Jar الحية Jape الصفة (المقعد الطويل) Sofa
المسك Musk الأرز Rice العطر Itard الليمون Lemon القهوة
Coffee السكر Sugar

وغير ذلك من الاسماء ذات الاصول العربية لم يقتصر الامر
على دخول هذه الاسماء الى اللغات الانجليزية والفرنسية والاطالية
بل دخل الى اللغتين الاسبانية والبرتغالية الفاظ يضيق بها
الحصر .

وقد أصدر الدكتور «رينر» - الاستاذ بجامعة هارفرد -
مجلدين ضخمين حاول أن يثبت فيهما أن الحضارة الاوروبية
ذات اصول عربية ورد اشتقاق كثير من الكلمات في اللغات
الاوروبية الى مصدر عربي .

واشار الاستاذ «بيكلسون» في كتاب «تراث الاسلام» -
الى المشابهات بين اقوال الصوفية المسلمين واقوال الصوفية
الاوربيين من الاقدمين مثل «اكسهارت» الالماني والمحدثين مثل
«ادوارد كاربنتر» الانجليزى .

وكان اكسهارت ينادى كما ينادى ابن العربي - بأن الله
هو الموجود الحق ولا موجود سواه ، وأن الحقيقة الالهية تنجلي في
جميع الأشياء ولا سيما روح الانسان التى مصيرها الى الاتصال
بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح وأن صلة الروح بالله
الزم من صلة المادة بالصورة والاجزاء بالكل والاعضاء بالاجسام .

ويرى الأستاذ «آسين بلاسيوس» الاسباني أن نزعات
«دانتى» الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مأخوذة من محبى الدين
«ابن عربى» بشير تصرف كثير .

وقد نقل الأوروبيون من الشرق الأرقام الهندية وكانوا يستعملون من قبل الأرقام اللاتينية وهي - من حيث تعقدها وصعابتها - لا يمكنها أن تخدم العلم الحديث .
ويقول المستشرق « ليري » : أن العرب إذا استحقوا الخلود فإنهم يستحقونه غالباً لأنهم حفظوا كثيراً من الثقافات الأفرقية ، إلى جانب ثقافتهم العريقة في وقت كانت فيه أوروبا تتخبط في ظلمات يموج بعضها فوق بعض .

وبرع المسلمون في التجاره براعة عظيمة ومن الاموال الماثورة في التجارة قول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . وقوله تعالى : « أحل الله البيع وحرم الربا » . ومن احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما أملك تاجر صدوق ، وما أقفر بيت فيه خُل » و « أطيب ما يأكل الرجل من كسبه » والكسب هو التجارة » . و « تسعة اعتبار الرزق في التجارة » وفي الحديث عن قيس بن أبي عروة : « كنا نسمى (السمايرة) فسمانا النبي صلعم بأحسن منه فقال : « يا ممشر التجار » .

وكان العرب يتاجرون مع الهند والصين لقربهم منها كما اتجروا مع البعديين عنهم وفي زمن الخلفاء الراشدين سافر ابن عبد الوهاب وكثيرون غيره من البصرة الى بلاد الصين وعام ٢٣ هـ (٦٤٣ م) كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بعد فتحه مصر « ان الغلاء قد وقع بالمدينة واذ الناس في جهنم من الغلاء » فبعث عمرو بجمال موقرة اولها الاسكندرنية وآخرها بالمدينة .

قال « فكتب عمر الى عمرو » بأن يحفر خليجا يحمل فيه الغلال الى القلزم (البحر الأحمر) ومن القلزم الى المدينة في البحر المالح فحفر عمرو الخليج المعروف (بخليج أمير المؤمنين) وكانت المراكب تحمل الغلال من الاسكندرية الى القلزم في الخليج ومن القلزم الى المدينة في البحر المالح .

وكان الخلفاء الراشدين والصحابه ومن والاهم اصحاب اعمال تجارية ، أبو بكر الصديق بزارا ومثله كل من عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف - وكان عمر بن الخطاب دلالا أو تاجرا وأبو سفيان بن حرب يباعا وعبدالله بن جعدان نحاسا ونحو ذلك .

وقد وصلت تجارة المسلمين بالطرق البرية والبحرية الى جهات نائية في العالم ، ووصلوا الى شمال أوروبا بتجارهم كما دلت النقود التي تركوها في تلك الأصقاع الشاسعة - والخطوط الكونية ونحوها وكانت البضائع التي يتناولها المسلمون من شمالي أوروبا كثيرة منها المعدن ولا سيما القصدير والعرو والعبر ويأخذ الدمشقيون مقابلها من المسلمين أنواع الأقمشة والسجاد الثمينة العيس ، والاباريق المحلاة بروائع النقوش والخطى النقية .

كما وصلت تجارة المسلمين الى الصين واليابان والملايو وجزر المحيط الهندي وجزر المحيط الهادي ، وكان لهم مع هذه البلاد معاهدات تجارية مختلفة ، واستخدم المسلمون المراكب المتنوعة في الاسفار البحرية ، والقوافل التجارية في الطرق البرية .

وهكذا كان فصل العرب على الحضارة الأوروبية معتدا الى تنمى بلدان أوروبا في مختلف العلوم والفنون والحرف والصناعات والطب والاختراعات ويقول المؤرخ العربي ليرييه : « ان العرب اذا استحقوا التمجيد فانما يستحقونه لأنهم ظلوا حفظة الثقافة الاغريقية والهندية طوال عصور كفت خلالها بقية الشعوب عن ان تنتج شيئا وكانت أوروبا ما تزال في جهالتها عاجزة عن ان تحمل الامانة .

ويمكن القارئ ان يمثل نموذ العرب في أوروبا من الاجتماع الصاحب الذي قال فيه بترارك يا عجباً استطاع شيشرون أن يكون حطياً بعد ديموستين ، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس فهل قدر علينا الا نكتب بعد العرب ؟ لقد تساوتنا نحن والاغريق وجميع الشعوب ، وسبقناها في بعض الاحيان ، حاشا العرب ! قيا للحماقة ويا للضلال ! »

وقد توغل اثر حضارة الاسلام في أوروبا حتى مازج النفوس وحالط انطباع وفي ذلك يقول العلامة « بارتلمس مسان هيبلا » لقد هذبت طوائع امرائنا الاقطاعيين الخشنة العليظة في القرون الوسطى بفضل علاقاتهم التجارية بالعرب ، وتقليدهم لهم ولقد تعلم اشرفنا وفرنسسانا رقة العواطف ولين الطباع وحسن.

الإخلاص من العرب دون أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم - واني لأشك في أن المصرية كانت تستطيع وحدها أن تأتي مثل هذا التأثير مهما يبالغ في كرمها » .

وقد عمل الاسلام على حماية المرأة وكان اول دين احترمها واحلها وكان الاغريق يعدون المرأة من المخلوقات النحلة التي لا تنفع لغير دوام النسل وتدمير تنوع النسل ، وكانت المرأة التي لاتضع ولدا قويا سالحا للعدية تقتل ، وكانت تؤخذ المرأة الولود من زوجها بطريق العارية لئلا للوطن اولادا من رجل آخر ، فأعطى الاسلام للمرأة حقا في الوراثة وعاملها معاملة كريمة وأخذ العرب عن المسلمين مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة ، إذ أعطى الاسلام المرأة حقوقها الطبيعية واحلها في المجتمع محلا كريما ، وجعلها في مكان لائق يناسب وظيفتها التي هيأها الله لها . لينم للانسان جميع عوامل التكامل والوصول الى ابعاد غايات الرقي الاجتماعي .

فالمرأة والرجل في الاسلام عضوان متكاملان خلقا لؤلفا الأسرة ويمينا على أكمل حال من المودة والتراحم فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وهي في الاسلام صنو الرجل في المسؤولية لها ما للرجل وعليها ما عليه فهي في الدنيا لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وفي الآخرة لها درجات المتقين أو الأشرار المفسدين فقال عز وجل : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وقد روى في الصحيح أن النساء اجتمعن مرة وفن للرسول صلى الله عليه وسلم « غلبنا عليك الرجال ، فاحصل لنا يوما من نفسك » . فاجعل لهن يوما يفقهن فيه ، فوعظهن وأمرهن .

وهذا الحديث يشهد بعلو منزلة المرأة في الاسلام حتى انه كفل لها حق الاجتماع للتشاور وتبادل الرأي ، ووجوه النظر ، وهذه مرتبة رفيعة يحق للمرأة العربية ان تزدها وتعاخر قبل

أن تطلق المسيحات السائيات من أوروبا مطالبه بالمعوق النسائية ،
والمساواة في مثل هذه الحريات بالرجال . بل أن الاسلام كفل
للغراه حق المايعة وهي لا تقص عن الرجال في ذلك شيئاً . وأمر
الله تعالى رسوله بقبول مبايعة النساء إذا انبىه فقال تعالى :

« يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبابعنك على ألا يشركن
بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يربحن ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين
بهتنن يعزونه بين أيديهن وأرحلهن ولا يعصينك في معروف
فبابعهن وأستعرن لهن الله ، أن الله عفور رحيم » .

فهذه حقوق نمتعت بها المرأة المسلمة منذ صدر الاسلام
في الوقت الذي كانت فيه المرأة العربية ملعة تساع وتشتري وكما
مهملاً لا قدر له ولا يمن . وليس من شك في أن المفكرين الاوروبيين
الذين اطلعوا على حضارة الاسلام فوضحو الحالات وعقدوا
المقارنات سرراً أيما سرور من منزلة المرأة في الاسلام حتى قال
جوستاف ليبون في معرض حديثه عن حضارة العرب : أن الاسلام
كان أول دين أحترم المرأة وأجلها » .

وهكذا شهد شاهد من أهلها . . ومن هنا يتضح لنا أن
الاسلام كان يمتاز بالحضارة الواسعة تضم بين رحابها شتى
المعارف والعنوم والفنون ومختلف ضروب المعارف ، بل مختلف
العادات والتقاليد والدعوات الحزيرية الكبرى ، التي كان لها
اصدااء متجاوبة في آفاق العالم الفسيحة .

الفصل الرابع

الصحافة العربية في أوروبا

ودورها في خدمة المجتمع الغربي

تعتبر الصحافة مرآة لحضارة الأمة وتقدمها، وقد قامت بدور كبير في نشر الحضارة العربية في . تى الاقطار والأمصار وكانت ابواقا معبرة عن رغبات هذه الأمة . وصبيحة منوية للمصاداة بمطالبها . وصورة ماطقة لآلامها وآمالها ، ولذلك أجمع المفكرون جميعا على قوة الصحافة وعلو رسالتها ، وسمواهداها فقال نابليون الاول : اننى أوجس حيلة من ثلاث حرائد أكثر مما أوجس من مائة ألف مقاتل . كما قال ولیم سید : الكتاب السيلوى يرتعد من منظره رئيسى جميع الشياطين .

وهذه الاقوال تدل دلاله واضحة على قدرة الصحافة على السيطرة على الراى العام ، ونحريك دفة الشعب ، فيفضل الصحافة استطاع الحكام أن يسيطروا على أزمة الامور في البلاد ، وبفضل الصحافة يستطيع الدعاة ان ينشروا ماذنهم ويمشوا أفكارهم ويعلنوا آراءهم فهي وسيلة قوية من وسائل الاعلام لها حظورها ولها أثرها في المجتمع وهي الصلة بين الزعماء والشعب وفي هذا يقول الصحفي الراحل انطون الجليل : كان حامل القلم كحامل السيف في يمينه كليهما سلاح ماضى وأصبح حامل القلم في العصر الحديث كالثاقيض على الصولجان . كلاهما نافذ الكلمة مرعى الجاس ، ولكن ذلك لا يتم للكتاب الا اذا فهم حقيقة مهنته ، وأدرك شرف مهنته ، فاذا لم يكن كل من همز الحسام يهارب ، فكذلك ليس كلى من همز اليراع بكتاب .

وأبعد حمله الأقلام نعوذا الآن هم الصحفيون بفصل انشاز
الصحف وأقبال الكبير والصغير عليها ، وعليه يجب أن تكون
الصحافة - كما قال أحد كبار المفكرين - شجرة الحقيقة يفرود على
أفنانها الكتاب الصادقون

وفد حاولت الصحافة العربية منذ مطلعها أن تكون صورة
صادقة لآمال وآلام الأمة العربية ، ومراصادقا للرأى الحر والفكر
النير ، فنجحت في بعض الفترات ، في حين لم تنجح في الفترات
الأخرى أن يصل إلى هذا الهدف فظلت تحت سيطرة التحكيمات
وسطوة المتسلطين الذين حاولوا أن يشتروا الذمم والضمان سواء
أكانوا من رواد الاستعمار أم من أذئاب للاستعمار ، فأتبع لهم أن
يضموا إلى حابهم أصحاب النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ، على
حين رفض أنصار الحرية أن يخضعوا لنفوذهم أو يخنعوا لسلطانهم
وقد انطلقت شرارات مثالفة من الشرق العربي إلى كافة أنحاء
العالم وفي أوروبا وأمريكا نشر اللغة العربية والفكر العسري ،
ولتكون لسان صدق عن رغبات العرب وسياط عذاب على المستعمرين
والمستبدين ، وكانت هذه الشرارات صغفا مطبوعة تحمل الثقافة
العربية والعقلية العربية ، والفكر العربي ، والمجد العربي !

فمن الصحف العربية التي ظهرت في أوروبا صحيفة « آل
سام » التي أصدرها الكاتب الأديب « رزق الله حسون » وكان يتولى
بنفسه صف حروفها وطبعها في دارة في قرية واندزورث وكان
يهدف إلى استئارة الرأى العام الأوربي ضد حكم الانراك للتخلص
من استبدادهم في الشرق العربي .

وسنرت صحيفة « مرآة الأحوال » عقب احتجاب صحيفة « آل
سام » وكان يشترك في تحريرها الدكتور لويس صابوحي وكانت
شديدة النقد للحكم التركي والاستبداد السلطاني ، واستطاعت أن
تتغلغل إلى جنبات العالم العربي غير أن المسؤولين لم يلبثوا أن أوقفوا
إصدارها .

وفي عام ١٨٧٩ أصدر رزق الله حسون نشرة نصف شهرية
أطلق عليها « حل المسائلين الشرقيه والمصرية » ومن أجل البحث في

سياسه مصر خصوصا والشرق الاوسط عموما . وفي عام ١٨٨٠ أصدر الدكتور لويس صابونجي بعد وفاة زميله رزق الله حسون صحيفة عربية في انجلترا اطلق عليها « الخلافة » وجعل شعارها « حرية واستقلال وبخاخ واقبال » وقد قامت هذه الصحيفة بدور كبير في اثارة الرأي العام ضد الحكم التركي والطغيان الحميدي ، وكانت مقالاتها تحفل طابع الحماسة المتدفقة والشعور المتاحم والمناذرة بالتخلص من الحكم العثماني بشتى الطرق ومختلف الفرائع وتحرير الوطن العربي من هذه العناصر الهدامة حتى ياخذ مسته وطريقه في سبيل الحرية والتقدم .

ومن أروع مقالات هذه الصحيفة مقالة « حي على الاستقلال » ومقالة « أيها الابطال » وقد حاول الاتراك أن يؤثروا على صاحبها لايقا اصدارها ، وتدخلت السلطات البريطانية لمصلحة الاتراك بيد أن الدكتور لويس صابونجي رفض في شدة أن يستجيب لرأي الاتراك رغم الوعود الخلابه ، والاموال الطائلة التي وعده بها عملاء الاتراك العثمانيين وأحصار الاستعمار في بريطانيا .

ولما اضطر لويس صابونجي الى اغلاق صحيفته تحت تأثير السلطات انحاكمة في انجلترا ، وبدافع تهديد البريطانيين أصدر صحيفة أخرى تحمل عنوان « الاتحاد العربي » وكانت هذه الصحيفة ترمي الى « ربط الشعوب التي تنطق باللغة العربية حتى يكون لها كيان واحد مستقل » وقد أقلقته هذه الصحيفة مضاجع البريطانيين وغيرهم من أعوان الاستعمار فعملوا حاهدين على ابقائها بعد ما تبين لهم الخطر الجسيم الذي يهددهم من جراء تكثف الامة العربية واتحاد العرب وانطلاق تيار العموية العربية ، فأغلقت هذه الصحيفة بعد ثلاثة أعداد من صدورها .

وفي عام ١٨٨٤ عاد لويس صابونجي فاصدر في انجلترا صحيفة « النحلة » عالج فيها المسألة المصرية السودانية في صراحة قامة ، واسلوب أمين .

ولما ضعفت صحة لويس صابونجي غادر انجلترا الى لوس

اجلوس في كاليفورنيا السحاليه - وهناك اعدائه يد ابيمة وكان
يبلغ في ذلك الوقت النامية والتسعين من عمره .

وفي عام ١٨٩٢ أصدر في لندن جيب سلمي اللبناني صحيفة
عربية أطلق عليها « ضياء الحافقي » وكانت صحيفة أدبية عميقة
حملت الثقافة العربية إلى الغرب واطلعت الغربيين على صفحات مشرقة
من الادب العربي الديني ، ثم أصدر « سليم سرطيس » في لندن
صحيفة رجح الصدى التي نشر فيها كتابا إلى السلطان عبد الحميد
حاء فيه « لم يبق من عمري الا أيام وساعات معدودة » . وأريد أن
أبسط أمام عرشكم آرائي الأخيرة وعلى آراء مجزئه انضحت لي بعد
خبرة طويلة تألمة »

وكانت هذه الصحيفة تحمل طابع الصراحة التامة والدفاع
الصادق عن العرب والعروبة ، ومبادئ الحرية والاستقلال ودعم
السيطرة أو الاستقلال في أرواح الوطن العربي .

على أن يعقوب صنوع قام بدور كبير في نشر الصحافة العربية
والدفاع عن القضايا العربية في باريس ، وبرغم أن صحفه كانت
تحت طابع السخرية والتعاطف بيد انها كانت سحرية مريرة ودعاية
قاسية تصل إلى أعوار المجتمع العربي . ويوضح أدواء الخبيثة ،
وعيوبه ومثاله ، وتحاول تخليصه من التقاليد القديمة البالية .

وقد أهدي السيد جمال الدين الافغاني إلى يعقوب بن صنوع
صورته بعد أن وقع عليها بخط يده تقديرا لهذه الجهود التي تقوم
بها في خدمة القضية العربية .

وقد صدر العدد الاول من مجلة أبو نظارة في ٢١ ربيع الاول
سنة ١٢٩٥ بمدينة القاهرة وكان اسمها « أبو نظارة زرقاء » وتحت
هذه العبارة كتبت جريدة « مسليات ومضحكات » .

وقد خاضت هذه الصحيفة في كثير من مشاكل مصر والمجتمع
العربي ولم يتورع عن مهاجمة الموظفين الفرنجة والأتراك بل لم يحش
مهاجمة الامراء والوزراء بل لم يهاب أن يهاجم الخديو نفسه بأسلوب
قاس عنيف وشرع بمهاجمة تحت اسم محجب هو « شيخ الحارة »

ويمثل الظلم والجور والطفيان والاستبداد . ويقول فيه على لسان
 الحق كلاما يبعث على النورة ويدعو الى الانقلاب ومثال ذلك قوله
 « وساكنتي عليه ليه ، استكره ، وقصدوا فيه عرصحات لشيوخ النسن
 الى هو اكبر منه ويفر يعرفه » ويقصد بذلك الخليفة العثماني .
 وكان الفلاح المصري في صحيفه « أبو نظارة زرقاء » يسمى
 « أبو الغلب » وكريم حليم هو الأمير حليم عم الخديو كما كانت
 هناك أسماء أخرى لشخصيات من صميم الشعب تحاول الكاتب أن
 يوضح دورها في المجتمع العربي .

وصاق الخديو اسماعيل بهذا الصحنى الجريء وحاول أن
 يشتري تمتعه وصميره بيد انه رفض ذلك في أباء وسم وقال لا أحد
 أذنب الخديو « قل لاسماعيل ان كان هو حائنا فأنا لست كذلك
 وان كنوز العالم كلها لا تساوى ظل شرفى » .

وقد غضب الخديو اسماعيل شديدا عندما نعى اليه
 بأعصاب يعقوب بن صوع وأمرياء القبط على ناعى صحيفه
 «أبونظارة زرقاء» كما أنشع القاهرة ان محرر الصحيفه وجد صريعا
 فى سريره وبظهر أن مصدر هذه الاساعة أن الخديو اسماعيل كان
 قد خلف بعض أتباعه باغتياله .

وقد هاجر يعقوب بن صموع الى فرنسا في صعب عام ١٨٧٨
 وكان خاوى الوفاى لا يملك من ماع الدنيا ما يقم أوده بيد أن
 رجال الفكر الاحرار عاونوه على أن يعيش حياة كريمة .

وقد أصدر في باريس صحيفه أطلق عليها « رحلة أبى نظارة
 زرقاء الاولى » ثم أصدر بعد ذلك مجلة أبو نظارة زرقاء وتحمل نفس
 العنوان الذى كانت تحمله شقيقتها فى مصر ثم عبر العنـوان الى
 صحيفه «الظلمات المصرية» ثم «أبوصفارة» ثم أطلق على صحيفته
 « الحاوى » .

وكانت صحفه تحل سرا الى مصر وتباع بالآلاف وكان غالبا
 ما يضع صحفه فى مجلات مصورة وفى كراسات الموسيقى وبين
 أوراق كتب من حجم الثمن وفى مجموعات للرسم وقد وضع فى
 الجرائد التى نشرت صورة الخديو توفيق عام ١٨٧٩ أكثر من ألف

نسخه من صحيفه ولم يكف بإرسالها الى المشتركين الكثيرين بل
يعد بها أيضا الى جميع أصدقائه ومعارفه وقد تلقى الخديو نفسه
واحدة من تلك الصحف المصورة فوجد صحيفه يعقوب فيها .
وغضب غضبا شديدا لهذه الحراة العظيمة وخاصة لما وجدانه نشر
في صحيفته نص الخطاب الذي أرسله به الخديو بطلب منه فيه
العودة الى مصر ويمنحه بأحدى الرتب فرض هذا العرض قائلا : « انا
أفضل أن أعيش في المنفى على أن أكون غنيا في خدمة طاعية » .

وفي عام ١٨٨٥ تمكن من ادخال أربعة آلاف نسخة من صحيفته
بوضعها في « مرتبة سرير » ووسادتين لسيدة فقيرة عائدة الى مصر
ولم يلاحظ رجال الجمرک شيئا وقد شكرته تلك السيدة الفقيرة على
الجرائد التي تبرع لها بها وقالت : أنها ربت من بيعها أكثر من
خمسمائة قرشا .

وقد قيل له أن النسخ التي كانت تصبى بين الحي والآخرى
الجمرك كان الموطفون يقرءونها أولا ثم يعطونها أصدقائهم ومعارفهم
فاذا ما انتهى هؤلاء من قراءتها باعوها الى الباعة السريعة بواقع
خمسة فرتكات لكل مائة نسخة وكان الباعة يوزعونها سرا بشئ
مرفق جدا .

وبرغم أن يعقوب بن صنوع كان يشكو من علاء الطباعة في باريس
وتكاليف الرسامين والبريد فإنه ظل يصدر صحيفته في عزم وإصرار
وكان يساهم معه في تحرير صحفه نخبة من المفكرين العرب الأحرار
وكان من بينهم السيد جمال الدين الأفغانى الذى نشر عدة مقالات
في صحفه منها مقال الشرق والشرقيين الذى نشره في العدد الثانى
من أبى نظارة زرقاء السنة السابعة وتوسط الصفحة رسم كامل
للسيد جمال الدين الأفغانى الذى استغرق مقاله أربع صفحات
كاملة هي حجم العدد كله .

وكان يعقوب بن صنوع يلجأ الى المحاورات من أحسن التهكم
والسخرة كما كان ينتقد الخديو اسماعيل الذى كان يسرف في
فرض الضرائب لا ليصل لرفع الثروة القومية ولكن ليزيد من دخله .

غير يعقوب بن صنوع ابتداء من العدد الثامن الصادر في السنة

الثالثة بتاريخ ٢١ ابريل عام ١٨٦٢ عنوان الصحيفة الى «ابو نظارة
 زرقاء لسان حال الامة المصرية الحرة» وقد وضح فيها الخطر المحدق
 بالقضية الوطنية كما صور فيها مأساة صرب الاسكندرية والحريق
 الذي اندلع في مبانيها والمذابح التي دارت في شوارعها وصور حزنه
 الدفين على هذا الحادث الاليم ويوصح كذب الانجليز بتحصيل معية
 هذا الحريق للمصريين ويدعو الحشد الى الجهاد ، فيقول : « ما لها
 اصل ولا فصل اخبار التلغراف لان جميعها صادرة من كلب البحر
 سيمور فلا اصدق ان عساكر مصرنا الاشراف جنب الاسانية تحصل
 منهم امور الجهاد المصري يموت في حب وطني العزيز فكيف يحرق
 وينهب البيوت وفي الواقع التي حصل من القتل باسكندرية داجاب
 علينا الحق لانه عار ولو ان ابتداء من الجريح الدون والمطية الى
 يوردهم اسماعيل وتوفيق وماليت الكار » ويوجه كلامه الى الامة
 البريطانية يشكو حكومتها فيقول : « انت كريمة يا امة بريطانيا
 انما حكومتك بالمظالم مشهورة انتى بتدافى في محافلك عن حقوق
 الاهالى المصرية ، وحكومتك مرادها تخرب بلادنا المسمورة » .

وبرغم ان هذه العبارات كتبت بأسلوب عامي ساذج فانها تحمل
 من المعاني الشيء الكثير الذي يدل على حرص يعقوب بن صنوع على
 الدفاع عن القضايا العربية ومهاجمة أعداء العرب والحكومات الاجنبية
 التي تهدد الشعب العربي .

وقد كان يعقوب بن صنوع ينشر ترجمة فرنسية لما يكتبه باللغة
 العربية كما كان ينشر مقالات أخرى باللغة الفرنسية .

ومن الصحف التي أصدرها جريدة التودد والمنصف والعالم
 الاسلامي . وقد رسمت على جانب اسمها قباب ومآذن وأشخاص
 باللباس العربي الاصيل وباللباس المصري مما يعطى صورة عن أبا
 قمبر عن أصحاب تلك المآذن والقباب وقد قرر محررها عشرة فرتكات
 اشتركا لها وعشرين فرنكا مع « أبو نظارة » وخمسة وعشرين
 للصحيفتين وما يصدر عنهما من ملاحق .

وقد استهل العدد الاول بقصيدة يبتهل فيها الى الله أن يحفظ

العالم الإسلامي وأن يهبه من الفصاحة ما يجعله يثبت أن الإسلام دين يسر ولا يخاصم ديناً من الأديان .
وقد نشر في صحيفته هذه كلمات التأييد والتعصيد التي تلقاها من تركيا وإيران والعالم العربي كما نشر التحية التي تلقاها من أحد محرري جريده التأييد ، وبرغم أن صحفة العالم الإسلامي لم تستمر طويلاً وكانت قاصره في أنائها على العالم الإسلامي لأنها جهد فرد من الأفراد لا جهد هيئة من الهيئات أو جملة من الجماعات فإنها كانت صحيفة مدوية للدفاع عن القضايا العربية ونشؤون الإسلام .

وقد يؤخذ عليها عدم تعمقها في دراسة القضايا الإسلامية بيد أنها كانت لواء خفاقاً باسم الإسلام في الغرب .

وكان يعقوب من أبوين غير مسلمين ومع ذلك فإنه حفظ القرآن الكريم وكرس حياته لخدمة الإسلام والمسلمين .

ويقول في ترجمة حياته . « وما أن فتحت عيني لأرى نور الحياة حينما وصلت إلى وادي الفروع حتى انزلقت من بين يدي المولدة التي كانت في استقبالتي . وظللت بلامه أيام بين الحياة والموت دون أن يعرفوا أن رأسي قد شح ، ولكن كسان على أن أعيش لأؤدي رسالة مقدسة ألا وهي مكافحة الاناطيل التي تفرق بين المسلمين والمسيحيين . باظهار سماحة القرآن وحكمة الانجيل ، وهكذا تنسجى لي الملائكة بين قلوب الفريقين » .

ومن الصحف التي أصدرها أديب اسحق في باريس صحيفة مصر الفاهرة ، لنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية وقال في خطة هذه الصحيفة « اردم مقاومة الساطل ونصرة الحق والمدافعة عن الشرق وآله وعن الفضل ورجاله » وأوضح معاييب اللصوص الذين سمىهم اصطلاحاً (أولى الامر) ومثالب الخونة الذين ندعواهم وهما (أمناء الأمة) ومفسدات الظلمة الذين تلقىهم جهلاء ولاية النظام . »

ومقصدي أن أثبر بنية الحمية الشرقية وأهيج فصالة الدم العربي وأرفع الفسادة عن أعين الساذجين ، وأحى الفجرة في قلوب العارفين .
ليعلم قومي أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ومالاً منهوياً فيطلبوه .

وليجرحوا من حطة الخسف وشفوا عنهم كل مدلس يشتري بحقوقهم
منا قليلا ، ويدفوا الجائنين عذابا ويبسلا وليستصغروا الانفس
والعائس في جنب حقوقهم وليستمتتوا في مجاهدة الذين
يبهون ابدانهم واعوالهم واوطانهم وآلهم ..

وتختم الصحيفة معالها بهذه العبارة . فمن قتل دون دمه فهو
شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ،
ومن عاش بعد هؤلاء الشهداء فهو سعيد ،

وهكذا كان الكاتب يعبد أن الترفى العربى كله (قومه) وهذا
يدل على الصلة الوثيقة ، والرشحة المتينة التي كانت تربطه
بأخوانه العرب في شتى الاقطار والامصار .

ومن الصحف التي صورت حضارة العرب في أوروبا صحيفة
« منبر الشرق » وقد صدر العدد الاول في مدينة حنيف في يوم الاحد
٥ من فبراير عام ١٩٢٢ (٩ من جمادى الثانية عام ١٣٤٠) واسمى
صدورها نحو اثنى عشر عاما . وقد كانت هذه الصحيفة تصدر
باللغتين العربية والفرنسية بيد انها اكتفت بالصدر بلغة واحدة
وهي اللغة العربية وكانت خطتها أن يكون الشرق للترقيين .

وقد ظلت تصدر في حنف حتى عادت للصدور مرة أخرى في
القاهرة عام ١٩٣٨ . وقد صدرت في العصر الحديث عدة صحف
في أوروبا وروسيا كما أصدر الدكتور محمود عزمي في إنجلترا عام
١٩٣٣ صحيفة تسمى « العالم العربى » وصدرت في نيويورك جريدة
الهندي للدكتور أحمد ركي أبى شاذى وجريدة الميان ، كما صدرت
في بوبس ايرمس بالارختين جريدة المواهب وجريدة السلام .

ومن الصحف التي كان لها أكبر الأثر والخطر في القرن الماضي
صحيفة العروة الوثقى التي تخصص لها فصلا من هذا الكتاب لاهيتها
وأهمية صاحبها السيد جمال الدين الأفغانى ومحررها الامام محمد
عبد ، وقد قامت بعض الصحف في أوروبا باقتفاء أثر هذه الصحيفة
حتى نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عن المسلمين كما نهضت في آسيا
صحف كثيرة تدافع عن الإسلام وتدعو الى أن يتمسك أنصاره بالعروة
الوثقى .

جريدة العروة الوثقى

رسالة صادقة لتحرير المجتمع العربي

العروة الوثقى لا انعصام لها وهى فى الوقت نفسه اسم لجريدة صدرت فى باريس فى القرن الماضى أو فى عام ١٨٨٤ على وجه التحديد وأنشأها فيلسوف الاسلام ، وحكيم الشرق الطائر الصييت السيد جمال الدين الافغاني ، ويهدف فيها الى الوحدة الدينية وجمع شتات المسلمين فى عروة وثقى لا انفصام لها .

وكان يدير سياستها الافغاني نفسه أما محررها الاول فكان الشيخ محمد عبده ويبدو من افتتاحية العدد الاول أن الاتجاه الدينى فيها يتطلب كل اتجاه آخر ، فإن روابط المسلمين الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة وما دام القرآن يتلى بينهم وفى آياته ما لا ينهب على أهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن بدلهم .

كما كانت هذه الجريدة تهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التى يوجهها اليهم من لائحة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق امورهم وأبطال زعم أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ما داموا على أصولهم التى فار بها آباؤهم الاولون .

ودافعت العروة الوثقى عن القضية المصرية دفاعا مجيدا ، وربطت هذا البقاع بالدين وجعلت ساعة الخلاص من الاحتلال ساعة الفرح عند المسلمين جميعا فى مشارق الارض ومقاربها إذ أن مصر مناطق أمل المسلمين عموما . أن مصر تعتبر عندهم من الاراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرا لموقعها من الممالك الاسلامية ولانها باب الحرمين الشريفين . فإذا كان هذا الباب آمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، والا اضطربت أفكارهم ، وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية ، ان الخطر الذى ألم بعصر فرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال الامة تستنفرهم ما دام الحرج بقارا . . .

أما عن منهج الجريدة الذي اتخذه لتعسها وسار على هديه ومواده فهو أنها ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراز من عوائل ما هو آت وتراعى في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الالة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسيات القوية التي لا تبيل الى الجيف والاحصاف بحقوق الشرقيين .

وكانت الجريدة ترسل أعدادها الى من تعرف أسماعهم مجانا بدون مقابل حتى تتداولها الامم والحمر والعنى والفقير ، وقد صممت الجريدة دعوتها الى القراء بهذه العبارة : ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته ، على النهج الذي يريده والله الموفق ،

وهذا يدل دلاله واضحة على أن منشئها حمال الدين الافغانى ومحررها الامام محمد عبده لم يكونا مضمنين بمال أو جهد في مسييل نشر الدعوة الاسلامية ، والمناذاة بالفضيلة وتحرير الاوطان الاسلامية من ربة الاستعمار وشر الاستعباد وحوزة الاسمال ولم يكونا هادفين الى مال أو ثراء ، أو نفوذ أو جاه انما كانا يلتزمان نشر الدعوة الاسلامية وبس النسخة الوطنية - بمختلف الوسائل ونشى الدرائع مهما كلفها ذلك من عرق ونصب وكذ وكفاح وغربة عن الاهل والاطوان والاحباب والخلان حتى يرحل المستعمر وتعرف الوبة الحرية على العالم الاسلامى وقد رحبت البلاد الاسلامية ترحيبا عظما بصدر هذه الجريدة وظلوا يتسابقون الى الحصول على عدد من أعدادها ، حتى اذا ما ظفروا به تناقلته الايدى في شحف ولهم وقد أحس الانجليز بخطرها قبل صدورها ، فهاجمت الصحافة الانجليزية بمجرد أن نعى اليها خبر إصدارها وإلى ذلك تشير جريدة العروة الوثقى في العدد الخامس فنقول : و عزمنا على انشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محررى الجرائد الفرنسية فكتبوا عنها قبل صدورها غير مبينين لمشرىها ولا كاشفين عن حقيقة سيرها فلما وقف على الخبر محررو الجرائد

الانجليزيه المهمة احذتهم البحدة ، وانذروا حكومتهم بما يؤثر هذه الحرية في سياسته الانجليز ويعودها في البلاد الشرقية ، والحو عليا ان تعد كل وسيلة لمنع الحرية من الدخول في البلاد الهنديه ، والبلاد المصريه . بل تطرقوا فصيحوها ان تلزم الدوله العمانيه بالحجر عليها .

ومكنت السلطات البريطانيه من منع الجريده من دخول الهند ومصر بيد انه صوتت الحرية لا يخصص ، و يذبح ادواج الرياح ، اما استطاع بعض المصريين الحصول على أعداد من هذه المجله وسرعان ما دب ابرها في قلوبهم . فرائد حواسه واسعلا في تحرير وطنهم من المستعمر الغاصب .

وعندما تمكن علماء الاستعمار من مصادرته العروة الوثقى في مصر اجتهد استملوها تجاه الانجليز وصمت ان يثرون بين المصريين من يستطيع ولو بأقصى الوسائل ابطال هذه الصغفه وبعض هذه البيعه وتقصده صفقه العرض التي كان يتفاوض عليها بونار .

وقد وصحت الجريده مساحة الاسلام ومساحة خلق المسلمين اد لم يسلك المسلمون في وقت ما سلك الانزام بديهم . والاحراز على مجوله . مع سلة باسمهم في بدايات دولهم وتبعدهم في اقتراح الاقطار ، واندفاع صممهم للبسطه في الملك والسلطة انما كانت لهم دغوة ييلفوها فان قبالت والا استبدلوا برسم مالى يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادله تعلم من كتب الفقه الاسلامى . هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى فانهم ماكانوا يطاون أرضا الا بولزموا اهلها بخلق اديانهم والتطوق بدين أولئك المتسلطين وهو الدين المسيحى كما فعلوا في مصر وسوريا بل في البلاد الافرنجيه بعضها .

وقد مضت العروة الوثقى توضح وجهة نظر المستعرض في الفناء الفكرة الدينية لبث العرقه بين المسلمين اذ تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين هي الروابط الدينيه وأنذركوا أن قونهم لا تكون الا بالعصمية الاعتقادية ولأولئك الا فرج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب

الديانة الاسلاميه ، وزينوا لهم نهج هذه الصلة المقدسة ، وفهم
 حبالها لينقصوا بذلك نبوء الله الاسلاميه وبمرفوها شيئا واحزابا
 والجريدة بتخصيصها للمسلمين بالذكر آحيانا ومدافعتها عن
 حقوقهم تقصد السكك بينهم وبين من يجاورهم في اوطانهم ويتفق
 معهم في مصالح بلادهم ويشتركهم في المنافع من نجيح طويته وليس
 هذا من شأن الجريدة ولا نميل اليه ولا يبيحه الاسلام ولا تسمح
 به السريفة ولكن الغرض « تحذير السريين عموما والمسلمين خصوصا
 من بطاير الاجانب عليهم والافساد في بلادهم » وقد محصر المسلمين
 بالخطاب لايهم العنصر العال في الاقطار التي غدر بها الاجنيبيون
 وأدلو اهلها احمعين ، واسأروا بجميع حيراتنا » .

وفي مقالة نارية صصت الجريدة بوصح واجب المسلمين في
 السالف والتأزر ، والمعاطف والكمال ، وكان عنوان المقالة الآيه
 الكريمة : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » فقال : « أن
 للمسلمين شدة في دينهم ، وقوة في ايمانهم ، وبنائنا على يقينهم ،
 بياهون بها من عداهم من الملل ، وان من عقيدتهم اتفق الاسباب
 لارتباط بعضهم ببعض ، وما زسح في نفوسهم أن في الايمان بالله
 وما جاء به بيبهم صلى الله عليه وسلم كفاءة لسعادة الدارين ، ومن
 حرم الايمان فقد حرم السعادي ، ويشفقون على أحدهم أن يفرق من
 دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء » .

وانطلقت تحلة دستور الوحدة بين المسلمين فقالت : المسلمون
 بحكم سريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالحفاظة على
 ما يدخل في ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأور بذلك لا فرق بين
 قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه ،
 وهو مرض عين على كل واحد منهم أن لم يقرم قوم بالحماية
 عن حورتهم كان على الجميع أعظم الأثام ومن فروصهم في سبيل
 الحماية ، وحفظ الولاية بذل الاموال والارواح وارتكاب كل
 صعب واقتحام كل خطب ، ولا يسالاح لهم المسألة مع من
 يغالهم في حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم
 من دون غيرهم ، وبالغت السريفة في طلب السيادة منهم على
 من يخالفهم الى حد لوعجز المسلم عن التخلص من سلطه عيره لوحبت
 الهجرة من دار حربه وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية

يعرفها أهل الحق ولا يعبر منها تأويلات أهل الأهواء ، وأعوان الشهوات في كل زمان . والمسلمون يحسن كل واحد منهم بهاتف يهتفه من بين جسيبه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يعرض عليه الإيمان وهو هاتف الحق الذي بقي له من الهلعات دية .

وعلى هذا النحو مضت الجريدة تطالب بتحرير أفغانستان من يد الإنجليز كما مضت تطالب بتحرير مصر من جنود الاحتلال البريطاني وتخليص مراكش من الجنود الفرنسيين .

وفي ١٥ من مايو عام ١٨٨٤ زادت حمية الجريدة في الدفاع عن المصريين فشرت في افتتاحيتها مقالاً مسميماً جاء فيه « هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستيحاء لهم ، ولها سعي بل كل السعي لخيرية آمال أعدائهم ، ولا ترى من مشربها مدح ريد ولا القندج في عمرو فان المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وإنما عملها سكب مياه التصح على لهب الضغائن لتتلاقى في قلوب الشرقيين جميعاً على الصفاء والوداد ، تلتصق من أبناء الأمم الشرقية أن يلتقوا سلاح التنازع بينهم ، ويأخذوا حذرهم وفلسحتهم لنفخ الصواري التي فقرت أفواهها لالتهمهم » .

وفي مقالة . « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتعشلوا وتذهب ريحكم » مضت تعدد عجد المسلمين في العصور الخوالي فقالت « أظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونسكاس على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين مريدب تحت خط الاستواء أقطاراً متصلة ودياراً متجاورة يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغال ، وأخذ بصولجان الملك منهم ميوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الأرض الأقبلا ، ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم » .

ثم مضت الجريدة تقول « والمسلمون اليوم هم يملئون تلك الأقطار التي ورثوها عن آبائهم وعندهم لا ينقص عن مائتي مليون وأربعادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أنسجيم وأسرع اقتداماً على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد الناس أزدراء بالحياة ، وأقلهم مبالاة بخرابها الباطل غير أن الجريدة أرجعت وقوف المسلمين في سيرهم بل فاحرهم عن غيرهم إلى عدم الترابط » .

فأخذت معاملهم تنتقص أطرافها وتتمزق حواسيها مع أن دينهم
يرسم عليهم ألا يدينوا لسلطه من يخالفهم ويعمل على الاستثمار
بالحلم عليهم وأن المسلمين لا يحتاجون في صياحه حقوقهم إلا إلى
تنبيه أفعالهم لمعرفة ما به يكون الدفاع ، واتعلق آرائهم على القيام به
عند اللزوم وإرباط قلوبهم بالشره عن احساس بما يطرأ على الأمة
من الأخطار .

« ليس لكل واحد منهم أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله .
« إنما المؤمنون أخوة » فيقيمون بالوحدة منذ تحول عنهم هذه السيول
المندفعة عليهم من جميع الجوانب »

هذه صفحات مطوية من العروة الوثقى وهي صفحات لاتزال
مشرقة متألعة رغم تطاول السنين وتعاظم العهد ، وقد صدر منها ثمانية
عشر عددا بلغ فيها الشيخ محمد عبده الدروة في روعة الأسلوب
ودسامة المادة ، والحرص على التمسك بأهـلـاب الدين الحنيف ،
ونخلص الوطن العزيز من برائن المعتصب الأتيم ، وقد اقلب الجريدة
في ٢٦ ذي الحجة عام ١٣٠١ هـ الموافق ٢٦ أكتوبر عام ١٨٨٤ م وجدت
الصحافة نجما زاهيا في سمائها ، ومتسعلا متألعا هاديا في فصائها
يهدى المسلمين إلى حقائق دينهم ، ودقائق شريعتهم الغراء ، وإلى حب
أوطانهم وقضاياها بالمهيج والأرواح .

وعندما عاد محرر العروة الوثقى الامام محمد عبده إلى مصر بعد
أن تبست براءته للحكومة المصرية عين قاضيا جزئيا في المحاكم
الأهلية ثم عيـنـتـسـارـا في محكمة الاستئناف ثم انتهى به المطاف مفتيا
للديار المصرية .

أما جال الدين الأفغاني فقد بقي بعد إغلاق العروة الوثقى في
باريس شهورا وفي لندن شهورا أخرى حتى أوائل شهر حادى عام
١٣٠٣ حيث أزمع السفر إلى إيران .

الكتاب الثاني

الفصل الأول

مؤامرات من صدر الاسلام

في هذا الوقت الذي تسبب فيه في بعض البلاد العربية محاولات فاشلة ومؤامرات حاثية ضد القومية العربية ، وانصار القومية العربية ، يطيب لنا ان نقلب صفحات التاريخ لنقرأ بعض صدور الفدر والحيانة التي صدرت عن نفوس مريضة وقلوب عليقة ، ونيات امارة بالسوء ، وقد تم بعض هذه الجرائم فخلف انرا سيئا في التاريخ على حين لم يشأ الله تعالى ان يحقق بعضها الآخر فباءت بالفشل والحسران المبين .

ولعل اول صورة من صور الفدر والخيانة تتمثل في هجرة الرسول الكريم فقد تحالفت عليه قوى البغي والاثم وانفتت قريش في دار الندوة على قتله والتخلص منه وتحطيم هذا الدين الجديد الذي يدعو الى قلب الاوضاع الاجتماعية الموروثة واتشاء مجتمع جديد ، قوامه التعاطف والتآلف ، والتساند والتآزر وفوضت قريش الى جماعة من الشبان الاشداء ، قتله واهدار دمه حتى يضيع دمه بين القبائل جميعا فلا تستطيع عشيرته ان تأخذ بثاره او تنقم من قتله ولكن الرسول الكريم كما هو معروف في السيرة العطرة ، استطاع ان يدرك بفضته وانصاره المخلصين سر هذه المؤامرة قبل تنفيذها ، فاتخذ الحيلة واعد الترتيبات اللازمة لخدLANها ، وهذه حاسة استكشافية وقدرة اخبارية تستحق كل اكرار وتقدير ، ولو ان قريشا تمكنت من الرسول الكريم ، وقتلته ، لضاعت الدعوة في مهدها ، ولما انتشر الاسلام في العالمين ، ولتفر وجه التاريخ .

وقد يقول قائل ان الله نفث في روعه واطلمه على نية قريش وقد يكون هذا على جانب كبير من الصحة بيد ان التجارب اثبتت قيعا بعد ان « جهاز المحابرات » عند الرسول كان ناجحا الى ابعد

حد وكان الرسول يرسل بعض السرايا والأشخاص « لنتطلى »
 الإخبار ولعل أكثر الانتصارات الحربية التي أحرزها الرسول
 تعزى إلى أحكام الخطة التي نفذها الرسول على ضوء التقارير
 السرية التي أحضرها أنصاره .

المهم أن الرسول استطاع أن يضع يديه على خيوط هذه
 المؤامرة قبل تنفيذها فبات على بن أبي طالب في مراحه ، وخرج
 النبي حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون « عليا »
 يحسبونه النسي فلما أصبحوا تاروا عليه فلما رأوا عليا : رد الله
 عليهم مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدري « فاعتصموا
 أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر وصعدوا الجبل فمروا
 بالغار فرأوا على بابه سبيج العنكبوت وورد أن حمامتين عثمتا
 على بابه وبقية القصة معروفة ومسرودة في سورة ابن هشام ومروج
 الذهب وتاريخ الطبري ، وتاريخ أبي العدا وغير ذلك من كتب
 التاريخ .

وتحدثنا الراجيع أن مؤامرة أخرى دبرت للتخلص من
 الرسول الكريم وكان قوامها « دس السم في الطعام » وقصة هذه
 المؤامرة ترجع إلى فترة انتصار النبي على يهود خيبر، إذ استطاع
 الرسول أن يهدم حصونهم ويهد سلطانهم ويقضي عليهم قضاء
 مبرما فطلبوا الصلح ، ورفعوا راية الاستسلام ، فأمّنهم الرسول
 على حياتهم وأموالهم بيد أن نفوسهم كانت مملوءة بالأنث والفضب ،
 فعزلت زينب بنت الحارث زوجة سلام ابن مشكم أن تنتقم ليهود
 خيبر من الرسول ، فزعمت أنها ستقيم وليمة للرسول لعقد الصلح
 بين الطرفين ، وأنها مستنحر فيها شاة لتقدمها هدية إليه ، فجلس
 هو وأصحابه حولها لياكلوها وتناول عليه السلام القرع فلاك منها
 مضغة لم يستسفها ، وكان بشر بن البراء معه قد تناول منها مثل
 ما تناول ، فأما بشر فقد استسأفها وأزددوها ، وإما الرسول فقد
 لفظها وهو يقول : إن هذا العظيم ليخبرني أنه مسموم ! ثم دعا زينب
 فاعترفت بجريمتها وقالت : لقد بلغت من قومي ما لم يخف
 عليك ، فقلت أن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسبحر «
 وصات بشر بن البراء من أثر السم ، بعد أن سقط على الأرض
 يتلوى من الألم ولم ينفع فيه العلاج واختلف الرواة في مصر
 زينب بنت الحارث فقال أكثرهم أن النبي عفا عنها وقدر لها عذرها

بعد اندي اصاب أباهما وزوجها في المعركة ضد المسلمين وذكر رواة آخرون انها قتلت في بشر الذي مات مسموما .

والقتل بالسم يوجب القود (١) عند احمد والشافعي ومالك ان كان الموت قد حدث نتيجة لسمي الجاني المجنى عليه بالسم وادأ كان السم قد وضع في طعام وقدم للمجنى عليه فيجب القود عند احمد ان كان مثله يقل غالبا ، وعند مالك يجب مطلقا وفي قول آخر لا قود في ذلك ، ويستند الشافعي في قوله بمنع القود بان المجنى عليه أكله مختارا ، مثله كمن قدم اباه سكين فقتل بها نفسه ولكن تقديم السم يفارق في الواقع تقديم السكين لانها لا تقدم الى الإنسان ليعتل بها نفسه بل تقدم اليه وهو عالم بمنعها ومصرتها فأنشبه ما لو قدم اليه السم وهو عالم . وقد تمت الجريمة السببة الى بشر وعلى حين أوشكت أن تتم بالنسبة الى النبي . وتنص المادة ١٩٧ من قانون العقوبات على أن من قتل احدا عمدا بجواهر يتسبب عنها الموت عاجلا أو آجلا يعد قاتلا بالسم ايا كالتب كيفية استعمال تلك الجواهر ، وكانت المادة ٢١١ من القانون القديم تعاقب بالاعدام على مجرد اعطاء السم سواء نتج الموت أم لم ينتج جارية على حكم المادة (٣٠١) الفرنسية :

فالقانون الفرنسي يعتبر جريمة التسميم تامة ولو لم يقض السم على حياة المجنى عليه ، كما حدث في تقديم السم الى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . زد على ذلك أن القصد الحثائي متوافر بنية أحداث الموت ، والشروع المعاقب عليه بتقديم الطعام المسموم الى المجنى عليه أو وضعه تحت تصرفه .

هذه هي بعض الامثلة للمؤامرات السياسية في عصر النبوة وان كان الطابع الديني يقلب على هذه المؤامرات بيد أننا لا بد أن نقرر أن السلطة الدينية والسلطة الزمنية في هذه الفترة كانتا وحدة واحدة وكانت الزعامة الدينية قاعدة جوهرية للسلطة الزمنية وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : « والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية

(١) القود هو القصاص وفي الحديث العهد قود احكام القرآن

للقصاص ج ١ ص ١٣٤ - ١٣٥

والدينية الراححة اليها ، اذ ان احوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به ، فالخليفة هو الحاكم الرضى والحاكم الروحى ، وهذا بخلاف ما نجده في العرب في العصور الوسطى .

وفي عهد عمر بن الخطاب ، بدأت المؤامرات تدبر في الظلام . وانتهت هذه المؤامرات باغتيال أمير المؤمنين بيد رجل مجوسى أو نصرانى أو فارسى من موالى الخيرة بن شعبة ، وقد روى ابن سعد فى الطبقات أنه لم يلبث حين نزل المدينة عائدا من حجة أن خطب فى الناس يوم الجمعة فذكر نبى الله ، وذكر ابا بكر الصديق ثم قال ايها الناس ، انى رأيت رؤيا لا اراها الا لحضور اجلى ، راي ديك احمَر ترقى نقرتين ، وقال : ايها الناس قد هضت لكم الفرائض ، وسنتت لكم السنن ، وتركتم على الواضحة ، الا ان تضلوا الناس يمينا وشمالا اللهم انى أشهدك على أمراء الانصار فانما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وستة نبينهم ، وليدلوا عليهم ويقسوا قسيتهم يمينهم ويرفعوا الى ما أشكل عليهم من أمرهم .

وفي يوم الاربعاء لاربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة خرج عمر بن الخطاب من منزله قبيل مطلع الفجر ، ليؤم الناس فى الصلاة ، وكان يوكل رجلا بالمسجد بالصفوف يسوونها قبيل كل صلاة مراعاة للنظام ، فاذا اعتدل الصفوف جاء هو فنظر الى الصف الاول ، فلما رأى فيه مقعدا أو ما خرا علاه بالدارة ، حتى اذا انتظم الجمع فى أماكنهم كبر للصلاة ، ودخل أمير المؤمنين فى تلك الساعة يستعد للصلاة ، ولم يكده تبين المحيط الأبيض من المحيط الأسود من الفجر ، وقد خيم الغيب على المكان فلما شرع ينقو الصلاة ليكبر حدث مالم يكن فى الحسين حدث أن ظهر على حين غرة رجل يمدح من عينيه الشرر قطعنه بحنجره ثلاث طعنات احداها تحت سرقته ، وأجس عمر بن الخطاب ينصل السلاح يوغر فى جسمه ، فالتفت الى المعلن ، وأخذ يصيح وقد أذهلته المفاجأة ، وأدركته الحيرة . **الكلب قد قتلنى !**

وكان الكلب يسمى **قبيصة** فلو أن الكلب لؤلؤة النصرانى ، وقد حضر الى المسجد متربصا قتلته فى هذه الساعة المبكرة من

السحر ، وكان قد أحق في نيابه حنجر قبضته في وسطه ، وله بصلان حادان وتوارى في أحد ارتكان المسجد ، حتى اذا ما دوت الاليلات والتكبيرات في المسجد ، وشرع الناس يتخلون بالصلاة بعد جريمته ، ثم ولى الأدير ، ولكن المسلمين تكاثروا عليه من كل جانب وسدوا امامه السبل ، وحبالوا بينه وبين الفرار ، فاطلق كالنور الهائج يحاول أن يشق طريقه ، والتصل يرفع في يده ، ويطعن به المسلمي بمئة ويسرة ، فيسقط منهم من يسقط ويدياوم منهم من يقاوم ، حتى طعن اثني عشر منهم مات مئة على حد تعبير بعض الرواة ، وتسعة على حد تعبير رواية أخرى ، بيد أن رجلا قوى الشكينة ، مقتول العضلات أثناء من ورائه فالتقى عليه رداؤه ، حينئذ تمكن من أن يلقيه أرضا ، وينقض عليه . وحاول الرجل أن يجرده من سلاحه ، ولكن أبا لؤلؤة أيقن أنه مقتول لا محالة . فطعن نفسه بالحنجر الذي يحمله قبل أن يتمكن من بزعه المسلمون

وكانت الطمئة التي أصابت عمر بن الخطاب تحت سترته غائرة اذ مزقت الصفاق والامعاء ولذلك أودت بحياته وقيل أن عمر لم يستطع الوقوف على قدميه فسقط لتوه على الأرض ، واستخلف عبدالرحمن بن عوف على الصلاة بالناس ، فصلى بهم ناقصر سورتين من القرآن الكريم وهما « العصر » و « الكوثر »

وقيل بل ما ج الناس بعضهم في بعض لذلك المصاب العادح الذي نزل بأمر المؤمنين وبناتفة من المسلمي الذين سقطوا صرعى في أظهر بقعة ضد سلاح الحيانة والفخر وهم يحاولون الامساك بتلابيب هذا القاتل الدنيب واشتد اضطرابهم حين رأوا عمر محمولا إلى داره على مقربة من المسجد ، وظلوا في اضطرابهم حتى نادى المخادى . الصلاة عباد الله ! قد طلعت الشمس ! فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلى ناقصر سورتيه *

وهذه الرواية هي الراححة في أقوال المؤرخين ، فليس ، المعقول أن تنظم صفوف المسلمي للصلاة لتوها بعد أن يرو أمر المؤمنين متضرجا في دماء ومن حوله أصحابه يسقطون وقد عزمت صدورهم طعنات الجوسى *

حمل عمر بن الخطاب على اثر الحادثة إلى داره وتجمهر

الناس حول بيته مستعصرين ، ودخل ابن عباسه بعض كبار
اهل الرأي . وقال عبد الله بن عباس ، قلم ارل عند عمر ، ولم
يزل في عمة واحدة حتى اسفر الصبح ، فلما افاق بطر في
وجوهنا فقال : أصلى الناس ؟ فقلت : نعم وقال : لا اسلام لمن ترك
الصلاة :

وخرج ابن عباس من بيت عمر بن الخطاب بعد أن ضمّد
اصحابه جراحه . وبأدى في الناس كرمه أمير المؤمنين : أيها الناس
ان أمير المؤمنين يقول : اعن ملامكم هذا ؟ وقد قصد بذلك ان
هذه الحادثة تمت على مرأى وسميع من المسلمين ، فتوى صوت
الحاصرين كالبرق القاصف مرة واحدة : معاذ الله ! ما علمنا ولا
أطلعنا ، فسألهم ابن عباس : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه
عدو الله أبو لؤلؤة غلام الخيرة بن شعبة .

ملا ابن عباس سمعه بهذه الاجابات الواضحة وهذه البراهين
الماطعة ، وشهادة الانبياء التي لا محيص عنها ، ولا شك فيها ،
ودخل الى عمر بن الخطاب فأنبأه بأقوال المشهود ، وأخبره ان
الجوسي طعن نفسه بالخنجر نفسه الذي طعنه أمير المؤمنين فازهق
روحه فقال : الحمد لله الذي لم يجعل فاعلي يحتاجني عند الله بسجدة
سجدتها له قط . ما كانت العرب لتقتلني !

وحصر في هذه الاناء أحد الاطباء فسقى عمر بن الخطاب
نبيذاً ، فاشبه النبيذ الدم حين خرج من الطعنة تحت السرة .
فدعا عبد الله بن عمر طبيباً آخر من الأنصار ثم أخسر من بني
معاوية ، فسقى عمر لبنا فخرج اللبن من الطعنة أبيض لم يتغير
لونه ، ولم تحد كل المحاولات التي بذلت لانقاذ حياة أمير المؤمنين
اد سراعاً ما لفظ أنفاسه الكريمة ، وفاضت روحه الى بارئها .
وانتهت صفحة حياة خليفة ذي ارادة حديدية ضد قسوى الظلم
الظفانيان ، وسجن لا يستبعد أن يكون للسياسة أصبح في هذه
رزمة ، فالمحققة أن العرس واليهود والبصاري كانت في نفوسهم
مغينة على العرب عامة وعلى عمر خاصة بعد أن غلبهم المسلمون
أمرهم ، وتولوا حكم بلادهم ، وانتهى أمر عاهلهم الى الفرار ،
فرار يزدجرد من أرض فارس الى أرض الترك ثم القضاء على دولة
لاكاسرة من بني ساسان .

وقد نصت المعاهدات المعتودة بين الفرس والمسلمين على الاحتفاظ بحقوق العرب كاملة غير منقوصة ، فنص صلح أصفهان على « من سب مسلماً يلغ منه ، فإن ضربه قتلناه » ونص صلح الرى على ان « يقرؤا للمسلمين يوماً وليلة وأن يقدّموا للمسلم قمن سب مسلماً أو استخف به فهك عقوبة ومن ضربه قتل وتصل صلح جرجان على « من سب مسلماً يلغ جهده من ضربه حل دمه »

ولعل هذه الشروط التي املاها العرب المنتصرون على الفرس كما لعل حرمانهم من الوظائف الهامة في الدولة أو ما إليها أو عر صدورهم فعملوا على الانتقام من أمير المؤمنين ، الذي يقف خلف هذه الانتصارات الكبرى .

وتقول المصادر الوثيقة ان عبد الرحمن بن عوف رأى السكين التي قتل بها عمر فقال : رأيت هذه السكين أمس مع الهرمزان وحفيته فقلت : ما تصنعان بهذه السكين ؟ فقالا : نقطع بها اللحم ! وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : قد مررت على أبى لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى أى يتناجون فيما بينهم ، لما نعمهم فأروا فسقط من بينهم خنجر له راسان ونصاب في وسطه ، فانظروا ما الخنجر الذي قل به عمر فوجدوه الخنجر الذي لعت عبد الرحمن بن أبى بكر .

وهكذا اتفقت شهادة عبد الرحمن بن عوف مع شهادة عبد الرحمن بن أبى بكر على وجود خطة مدبرة ، ومؤامرة مدبرة في الظلام وأيد الشهادتين ان النصل الذي قتل به عمر بن الخطاب كان في أيدي المؤمرين وهم يتناجون فيما بينهم وما كانت هناك ضرورة لوجود الخنجر ، ولا مستعجلاً ان الموقف لا يستدعى الدفاع عن النفس لو أنهم كانوا يتناجون في أمر يصلح الله به حال البلاد والعباد .

وعلى هذه الصورة البشعة المتكررة تم اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ونفذت أدنا مؤامرة في تاريخ المسلمين .

ولا خلاف بين الفقهاء بان القتل بالمحدد يوجب القصاص ، والقتل بالمحدد هو كل آلة لها حد كالسلاح وما جرى مجراه من الأشياء المحددة أى التي تماثله في تفريق الأجزاء كالمحدد من

الخشب أو ما كان من الزجاج والذهب أو القضة أو النحاس أو الرصاص ، ويرى جمهور الفقهاء عدم اعتبار القتل عمداً إلا إذا ارتكب بألة قاتله ، ويشترط الإمام أبو حنيفة أن تكون الألة التي استخدمت في القتل محددة أي مفرقة بالأجزاء فإن لم تكن كذلك لا يعد القتل عمداً . وقد ثبت من معانيه السلاح الذي استخدم في قتل عمر بن الخطاب أنه محدد أي مفرق الأجزاء ، وذو بصلين كما كان القاتل متعمداً بقتل عمر مما يعطى على الظن موته به (الترمذ الكبير) وكان كما جاء في البدائع في القتل العمد «قاصداً إياه كما كان القصد عمداً محضاً ليس فيه شبه العلم » .

وقد جاء في كشف القناع أنه يشترط في القتل العمد القصد فإن لم يقصد القتل فلا قصاص ، وقد توافر القصاص في أركان هذه الجريمة بل لقد تمت الجريمة مع سبق الإصرار وهو القصد المصمم عليه قبل العمل لارتكاب جنحة أو جناية وتكون غرض المدم منها إبداء شخص معين أو غير معين وجده أو صاذه سواء كان ذلك القصد مطلقاً على حدوث أمر أو موقوفاً عليه (مادة ١٩٥ ع) . وقد سبق الإصرار جريمة قتل عمر يزمن فسرك فيه المتهم ورنب ما عزم عليه ووازن بين مزاياه وأخطاره ، وتدير عواقبه ، وخرج بعد ذلك مصمماً على ارتكاب الجريمة فهو أشد خطراً ممن يقدم عليها بدون تفكير أو تدبير (جارسون مواد ٢٩٦ - ٢٩٨ فقرة ٦) .

كما تم في هذه الجريمة التردد وهو تريض الإنسان لشخص في جهة أو جهات كثيرة مدة من الزمن طويلة كانت أو قصيرة ليتوصل إلى قتل ذلك الشخص أو إيذائه بالضرب أو نحوه (مادة ١٩٦) وقد تم التردد في هذه الجريمة إذ انتظر الجاني عمر في المسجد ثم أجهز عليه . والرأي السائد بين الشراح والمحاكم الفرنسية أن التردد يستلزم سبق الإصرار ، وأن الأول إنما هو مظهر من مظاهر الثاني يقترب فيه التصميم بعمل خارجي هو الكون في مكان معين لترقب الفرصة الصالحة لتنفيذ ذلك التصميم ففيه زيادة على سبق الإصرار معنى التردد ..

ولم يكذب يولي عثمان بن عفان الخلافة بعد عمر حتى هبت الفتن من مرقدها ، وانتهى الأمر بمصرعه ضحية المؤامرات السياسية كذلك . وكانت هناك « جمعة سرية » يدبر شئونها

« عبد الله بن سبا » المعروف « بن السوءاء » تناهض عثمان
 ابن عفان ، وكان عبد الله يهوديا ثم أسلم على عهد عثمان ، فأسس
 جمعية على مبدئين دينيين أولهما وجوب رجوع محمد عليه
 الصلاة والسلام الى الدنيا كما قبل يرجوع عيسى عليه السلام ،
 والمبدأ الثاني وصاية علي بن أبي طالب ، فكان يقول للناس : انه
 كان لكل نبي وصي ، وعلي وصي محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز
 وصية رسول الله : ووب علي وصيته ، وان عثمان أخذها بغير
 حق . وبعث عبد الله بن سبا دعائه في شتى الأقطار والامصار
 لتناهضة عثمان بن عفان . كما قام « همران بن ايان » في البصرة
 : يغاز الصدور على عثمان لانه كان حاقدا عليه اذ صر به على
 زواجه بأمرأة في العلة وحرض أهل الكوفة على التطاهر بإبعاده
 كما اتهمه أعداؤه باتهامه الصلاة في منى وعرفة وكان الرسول
 والخليفةان أبو بكر وعمر بعده يعصرونها ، وبخراج أبي ذر من
 الشام والمدينة ، وكان يصعد ان كل أموال الفء من حقوق المسلمين
 وليس للامام أو من يقوم مقامه ان يذخر شيئا منها بل يجب ان
 تقسم على الناس . ويسقوط خاتم النبي من يده في يتر أريس ،
 وبمجاياة اهله وأقاربه ونسب عمه واقطاعهم ألقطائع واغداق
 الأموال عليهم واستئثارهم بالسلطة وترك المهاجرين والانصار
 لا يستشيرهم ولا يوليهم حتى أن عمرو بن العاص كان يضجر من
 عثمان في اواخر ايامه . فلما انتهى عثمان من احدى خطبه صاح
 به عمرو : اتق الله يا عثمان فانك قد ركبت امورا وركبناها معك فتب
 الى الله فتب !

وانتهى امر الثوار بمحاصره داره ليحاووه على خلع نفسه
 بل انهم متعوا عنه الماء حتى يذعن لأوامرهم ، ودخل عليه وفد
 منهم يرأسه « ابن عديس » وسألوه عن استبداد والي مصر عبد
 الله بن سعد بن أبي السرح ، وأطهروه على الكتاب الذي أرسله اليه
 فحلف انه ما كتبه ولا علم به ، وسألوه عن كتبه فقال لا أدري !
 فقالوا كيف تكتب في مثل هذه الامور العظيمة ، وتدلس عليها كتابك
 وانت تعلم ؟ فان كنت كاذبا فد استحققت الخلع وان كنت صادقا
 فقد استحققت ان تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك
 وخنث بطانتك فاخلع نفسك كما خلعت الله فاجابهم عثمان اني
 لا أنزع ثوبا ليسنيه الله تعالى ، ولكني أتوب وأنزع قالوا له : لو

كان هذا أول ذنب ثبت منه فبأننا ، ولكننا رأيناك تتوب ثم يعود
ولسنا متصرفين حتى نخطبك أو نفتلك ، أو تلحق أرواحنا بالله
تعالى ، وإن منعك أصحابك بمسألتهم حتى نخلص إليك وخرج
الوفد حتى يتوك عثمان يفكر .

وفي هذه الاثناء بلغ الناثورين خبر وصول المدد الذي طلبه
عثمان ، فحاول بعضهم أن يدخل عليه ليقته فمتمهم الحسن
والحسين عليهما السلام ، ومحمد بن طلحة ، وابن الزبير ،
وابو هريرة ، وسعيد بن العاص .

وجد الثوار في أمرهم ، واقتحموا عليه الدار فأشرف على
المتأمرين وقال لهم : أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم : الستم تعلمون أن رسول الله قال : من جهز
بجيش العسرة فله الجنة فجهزته ، الستم تعلمون أنه قال : من
حفر بئر رومة فله الجنة فحفرتها ؟

ودخل عليه أحد الثوار فقال : اخلعها وتذعك فأبى فخرج
الرجل ودخل ، آخر ، وكلهم يعظه ويخرج ، ثم دخل عليه محمد
ابن أبي بكر فحاوره طويلا وخرج ، ثم دخل عليه الفوغاء من
الناثورين ، فطمته الفواقى بحديدة كانت معه ، وجاء غيره لضربه
بسيفه ، فأكبت عليه روجته نائلة ، وتلقت السيف عنه بيدها فقطع
أصبعها ، ثم ضربوا عنقه ، وأنتهبوا بيته وبيت المال ، وكان ذلك
في الثامن عشر من شهر ذي الحجة عام ٢٥ هـ (٥٥٦ م) .

وبلغ الخبر عليا وطلحة والزبير وسعدا ومن كان بالمدينة
فدخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فقال على لابنه : كيف قتل
أمر المؤمنين وانتما على الباب ، ورفع يده ، فطم الحسن وضرب
الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير ، وخسرج
وهو غضبان حتى أتى منزله .

وهكذا تمب هذه المؤامرة التي أدى تنفيذها فيما بعد إلى
فرقة المسلمين وانقسامهم شيئا وأحزابا والواقع أن الباحث في
مقتل عثمان بن عفان يصادفه بعض الحرائم لا جريمة واحدة ،
فقد منم الثوار عن عثمان الماء حتى يخلع نفسه عن الخلافة ، ونحن
لا نستطيع أن نقطع بأن الثوار أرادوا أحداث جريمة القتل بالترك

أو الامعاء كما يسميها الشرعون . وهي مبحث يختلف فيه العلماء من قديم وأفاض فيه علمائه الألمان خاصة ومنهم فون ليست .

فإذا كان النواز شرعوا في أحداث جريمة القتل بمتع الماء عن عثمان حتى يموت عطشان ، والترك نفسه بصلح سببا لجريمة لاي الفعل والترك كلاهما من صور الارادة الانسانية العاملة . في حين يرى بعض العلماء ان الترك عدم والعلم لا ينشئ الا العدم ، ولا يمكن ان ينشئ موجود على معدوم او بعبارة اخرى لا يمكن ان يكون العدم سببا في نتيجة ايجابية .

ولكن الذي يحبس شخصا بغير حق . ويمنع عنه الطعام والشراب قاصدا قتله يعاقب على القتل عمدا اذا مات السجين جوعا او عطشا ، بل ان الام التي تمتنع عن تغذية ابنها الى ان يموت جوعا او عطشا تعتبر قاتله وتعاقب بعقوبة القتل العمد .

يد ان الامر لم يقف عند جريمة الشروع في القتل بالترك او الامتناع انما امتدت الى القتل بالة محددة عمدا مع التردد وسبق الاصرار ، فنحن امام جريمة عمدية كاملة الاركان توافر فيها العنصر المادي الذي يتمثل في نشاط التفاعل الملموس أو فيما يجريه خارج شخصه . ففي هذه الجريمة مثلا يكون الركن المادي من الطعن بالسلاح وموت الجاني عليه وعلاقة السببية بينهما .

اما الركن المعنوي في هذه الجريمة فهو ذلك الجانب من نشاط التفاعل الذي يجري في داخله او في نفسه وفي الجريمة المتقدمة يتكون من ارادة الجاني او الحنة والطعن بالسلاح ، واتجاه القصد الى الموت وارهاق الروح .

وقد توافر في هذه الجريمة كذلك الاتفصاف الجنائي بين الفاعلين ، بيد ان بعض الفقهاء يرون ان عثمان بن عفان كان صلب العود ، ثابت الرأي في غير ما موضع وكان من الافضل ان يتنازل عن الخلافة لغيره ما دامت القبائل تضافرت ضده من كل جانب ولا سيما ان اتوار دخلوا عليه اكثر من مرة لمفاوضته في هذا الشأن فابى ان يخضع لارائهم ، ورفض المنازل في كبرياء ، علي ان هذا لا يعنى الجناد من القصاص عملا بقوله تعالى : « كتب عليكم

القصاص في اقتلى « وجاء في نهاية المحتاج « من جرح رجلا عمدا فلم يرل دا فرائس حتى مات فعليه القصاص ولو ائدملت جراحته واستمر محموما حتى هلك فيجب العود ان قال طيبان عدلان انها من الجرح فلا غرو ان يتحل بعض الزعماء المشهورين مثل طاحه بن عبيد الله والزبير بن العوام من مقتل عثمان وعدم المطالبة بدمه والقصاص من قاتليه سببا في مهاجمة على بن ابي طالب

واجتمع في موسم الحج عام ٣٩ هـ نفر من الخوارج في مكة هم عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والحاج ابن عبيد الله التميمي الصريمي ، وعمرو بن بكر التميمي ، وانفقوا على ان الرؤساء الثلاثة على معاوية وعمرو بن العاص هم سبب البلاء والفرقة وانفقوا على ان يتولى ابن ملجم قتل على ، والحجاج الصريمي قتل معاوية وعمرو بن بكر قتل عمرو بن العاص ، وان يكون التنفيذ في الكوفة في وقت واحد في ليلة ١٧ رمضان عام ٤٠ هـ

وسافر ابن ملجم الى الكوفة واخذ يسقى سيفه السم ثم ذهب الى المسجد لتنفيذ المؤامرة ، وباغت عليا وطعنه بالسيف في مقدمة راسه طعنة قوية وهو يقول :الحكم لله لا للتيا على ! فصاح على : لا يفوتكم الرجل فقبض الناس عليه ، والتف الناس حول الجريح فقال : ان هلكت فاقتلوه كما قتلني . وان اعش فانا ولي دمي . اما عفوت . واما اقتصصت . ولكنه توفي بعد يومين من الحادث . وقبل ابن ملجم بعد ان عذب وقطعت اطرافه . ولم يغز الذي ندب لقتل معاوية . اما ماكان من امر عمرو بن بكر الذي عول على مثل عمرو بن العاص فانه جلس له في الليلة المذكورة ، فلم يخرج عمرو بن العاص لمرض ألم به ، وندب خارجة بن خديجة قاضي مصر ليصلي بالناس وبينما هو في الصلاة ضربه عمرو بن بكر بالسيف فقتله وهو يظنه عمرو وقال : اردت عمرا واراد الله خارجة ! ولما وقف الرجل بين يدي عمرو بكى فقيل له : اجزعا من الموت مع هذا الاقدام ! فقال : لا والله ! ولكن غما ان نفور صاحباي يقتل علي ومعاوية . ولا افوز انا بقتل عمرو

الفصل الثاني

مؤامرات من العصرين الأموي والعباسي

قبل ان نعرض للمؤامرات في العصرين الأموي والعباسي نتحدث عن مؤامرة كان لها أكبر الأثر في قيام الدولة الأموية ، وأعني بها مؤامرة التحكيم اذ أرسل على بن أبي طالب الأشعث ابن قيس إلى معاوية ليستنصر أمره ويعسوف رأيه ، فقال له معاوية بن أبي سفيان : « يرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه ، تبعثون معكم رجلا ترضونه ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما ان يعملوا بما في كتاب الله » .

وعاد الأشعث إلى على بن أبي طالب فأحاطه علما بوجهة نظر معاوية ، فقال انتمى : رضىنا وقبلنا ونتيجة لذلك اختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري فقال على بن أبي طالب : « قد عصيتُموني في أول الأمر . فلا تعصوني الآن » وأبدى لقومه وعشيرته خشيتهم من تنصيب موسى الأشعري مندوبا عنهم في التحكيم لأنه كان يخلل البأس عنه ، بيد أنهم أصروا على موقفهم وأبوا إلا إياه . فأذعن على مضطرا لرأيهم .

ولم يلبث أن اجتمع عمرو بن العاص ، وأبو موسى الأشعري « بدومة الجندل » في شهر صفر عام ٢٧ هـ حيث كُتب عقد التحكيم ، ويؤخذ من هذا العقد أنهما اتفقا على التزول عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بينهما غيره ، وأن كتاب الله من دأبته إلى خاتمته بينهما بحيان ما أحيا ويميتان ما أمات ، وقررا الأمان على أنفسهما وأهلها وشتى طوائف المسلمين ، وأن الأمس والاستقامة ووضع السلاح بينهم أبنا ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم ، وشأانهم وغائبهم ، وبمسد ذلك تجل دعاء عمرو في

أحلى صوره وأوضح مظاهره . اذا اسلرح عمرو ابا موسى حتى
خلع عليا على حين ببت عمرو معاوية بن أبي سفيان .

ويروي الطبري في تاريخه قصة هذه المؤامرة السياسية التي
دبرها عمرو بن العاص لتثبيت أقدام معاوية فيقول : قال عمرو
يا أبا موسى - بعد أن عدد أسماء كثيرين من الصحابة لتولية
الحلابة - ما رأيك ؟ قال : رأي أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل
الامر شورى بين المسلمين فيحاربوا لانفسهم من احبوا فقال له
عمرو ان الرأي ما رأيت . وقال : يا ابا موسى اعلمهم بان رأيا
قد اجمع واتفق فتكلم أبو موسى . ان رأيي ورأي عمرو قد اتفقا
على امر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة ، فقال
عمرو : صدق ، تقدم يا ابا موسى فتكلم ! فتقدم أبو موسى ثم قال :
ايها الناس ! انا قد نظرت في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ،
ولم شعثها ، من أمر قد اجمع رأيي ورأيه عليه ، وهو أن نخلع
عليا ومعاوية ، فستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيولوا منهم من
أحبوا عليهم واني قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ،
وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر اهلا . ثم أقبل عمرو بن العاص
فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ان هذا قد قال
ما سمعتم وخلق صاحبه ، وانا أطع صاحبه كما خلقه واثبت
صاحبي معاوية ، فانه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه والمطالب
بدمه ، وأحق الناس بمقامه # فتأبذا ، وركب أبو موسى راحلته
ولحق بمكة ثم انصرف اهل الشام الى معاوية وسلموا عليه
بالحلافة .

ويروي المسعودي في مروج الذهب قصة هذه المؤامرة
بطريقة أخرى تختلف عن رواية الطبري بيد انها تتفق معها في
مضمونها وهو خداع عمرو بن العاص لابن موسى الاشعري ، وخلق
على بن ابي طالب ، وتثبيت معاوية بن ابي سفيان ، فهو يقول انه
لم يكن بينهما غير صحيفة مكتوبة تعاهدا فيها على خلع على
ومعاوية وان يولى المسلمون من احبوا ، ولم يخطب أحد منهما
في الناس .

وسواء اكانت رواية الطبري ام المسعودي هي الصحيحة ،

على المؤامرة قد تمت وتمكن عمرو بن العاص من تنفيذها . وعندما أنه لم يكن سوى آلة منفذة لها أما الرأس المفكر . فكان معاوية ابن أبي سفيان ، وهذا واضح جلي من اجتماعه بعمره قبل التحكيم ، بل ان معاوية قال لعمره قبل التحكيم : يا أبا عبد الله ! ان اهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى . وأنا واهل الشام واضون بك ، وقد سمع اليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأي واحد مأخذ الجد ، ولا تلقه برأيه كله .

وعمره بعض المؤرخين نجاح هذه المؤامرة الى دهاء عمرو اس العاص الذي كان خير منافع عن موكله والى طيبة قلب أي موسى الأشعري . بل سادجته وقلة حيلته . والغريب ان الطبري يروي رواية فحواها ان عبدالله بن العباس قال لأبي موسى الأشعري حين أراد عمرو بن العاص ان يتقدمه : ويحك اني والله لأظن عمرا قد خدعك ، ان كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدمه ليتكلم بذلك الامر قبلك ، ثم تكلم انت بعده ، فان عمرا ورجلا غادر ، ولا آمن ان يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فادا قمت في الناس خالفك .

وإذا صحت هذه الرواية التي كانت بمثابة التحذير لأبي موسى الأشعري ، فانها تدلنا على أنه كان حاليا من دهاء رجل السياسة ، وبصره ، وبعد نظره وثاقب فكره .

وساعدت عوامل كثيرة على تثبيت ملك معاوية ، ومن أبرزها نجاح هذه المؤامرة واضطراب حال جيش علي بن أبي طالب . والتفاف حند معاوية حوله وتأييده ، وبصرته .

ولم تكن هذه المؤامرة الا بداية لمؤامرات أخرى فقد غضب لعيف كبير من اهل العراق لعكرة التحكيم وطلبوا من علي ان يرجع عن خطئه ، وان يشعلها حربا عوانا ضد معاوية ، وأوفدوا اليه رجلين من رعايهم هما زرعة بن البرج الطائي ، وحرهم بن رهم السعدي ، فطلبوا منه الادعان لرايهم او الخروج على طاعته وشن الحرب عليه ، اذا أمر على قبول التحكيم وسمى هذا الفريق بالخوارج .

وقد اجتمع هؤلاء الخوارج واختاروا عبد الله بن وهب

الراس رعيما عليهم . واستقر امرهم على معاداة الكوفة واعلان الثورة ، انكرا لهذه « البدعة المضلة والاحكام الجائرة » واخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم عقيدتهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعلياً ، واجتمع الخوارج من اهل البصرة والكوفة وقصدوا الهروان فسار على اليهم ، فلقبهم على أنهروان وأبادهم مكاما قبل لهم : موتوا فماتوا على حد تعبیر ابن طباطبا في « القسرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية » ولكن هزيمة على للخوارج في الهروان لم تقض على كل فئاتهم فقد ظلوا شوكة في جانب الأمة الاسلامية التي أصبحت عندتولى معاوية بن أبي سفيان الحكم وقيام الدولة الاموية ، تتنازعها ثلاث طوائف ، طائفة شيعة بنى أمية من اهل الشام وغيرها من الامصار ، وشيعة على بن أبى طالب ، وطائفة الخوارج وهي تعادى العريقتين السابقتين وتستحل دماءهما .

وقد شرع الخوارج يدبرون المؤامرات السياسية لتولى الحكم وتفاقم خطرهم في الأمة الاسلامية بيد ان زياد بن ابيه لما تولى البصرة عام ٤٥ هـ خطب خطبته المشهورة « بالنزاهة » واشتد في معاملة الخوارج حتى عجم عودهم .

ولكن الدولة الاموية ظلت مهددة بثورات الخوارج فترة طويلة ، شهد هذا العصر كثير من زعمائهم نذكر منهم المختار الثقفى ، ونافع بن الأزرق وصالح بن مسرج التميمى . وشبيب بن يزيد نعيم الشيماني . وبعده بن عامر ، وزياد بن الاصغر وغيرهم .

مصرع الحسين بن على :

ولا يمكن لمؤرخ العصر الاموى والمؤامرات السياسية التي دبرت فيه أن يغفل قصة مصرع الحسين بن على التي تعد من اشد الجرائم قسوة في التاريخ الاسلامى . اذ ارسل يزيد بن معاوية الى الحسين بن على ، وكان وقتذاك في المدينة ، ليدخل مع من دخل في مبايعته ، فامتنع الحسين وابى أن يلحق لراى يزيد وخرج الى مكة وما ان وصل اليها حتى بلغته الرسائل من العراق ومبايعته له دون يزيد بن معاوية وهنا ازددت حاسمته ، وعول

على الصمود حتى النهاية . بيد أن بعض خلاصاته صححوه بعدد
تصديق أمر هذه الرسائل . وانقسم اتباعه الى فريقين ، فريق
يؤيد رسائل أهل العراق وينصحه بالخروج الى العراق ، وفريق
لا يؤيدها ، ويعدها خدعة من الخدعات السياسية ولونا من
التأمر ومن هذا الفريق عبد الله بن العباس وابن عمر .

ولكن الحسين بن علي لم يوافق هذا الفريق الآخر وانصاع
لرأي الفريق الأول ، اذ ملئوا آذانه بأنه سيط رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، ومن أكفا المسلمين علما ، وأكثرهم ثراة يستنون
الشرع الشريف .

واراد الحسين أن يستوثق من تأييد وعلاء العراق الذين
كتبوا اليه ، فأرسل ابنه عمه مسلم بن عقيل ، فأخذ يبعثه له
صهم ، وبعث اليه أن يحضر للاقاتهم .

خرج الحسين من مكة بعد ما بلغه كتاب مسلم بن عقيل ،
وما أن خرج منها حتى انطلق عبدالله بن عمر في أثره ليمنعه من الخروج
الى هناك خشية الهلاك وحتى لا يذهب ضحية مؤامرة خبيثة
لقتله ، أو المفرد به في هذه البقاع حتى يسلمه الجند للموت ،
واندركه عبدالله بن عمر بعد ميلين من مكة وقال له : ارجع ،
فأبى الحسين فقال : « اني محدثك حديثا ، ان جبريل أتى النبي
صلى الله عليه وسلم فخيره بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة ،
وانك بصحة منهم ، والله لا يليها أحد منكم » فقال الحسين
« ان معي حملين من كتب العراق يبايعني أصحابها بالخلافة »
فقال عبدالله بن عمر : « ماتصنع بقوم قتلوا أبك وخذلوا أخاك ؟ »

وأبى الحسين الا الانطلاق الى العراق فيكي عبد الله بن عمر
وقال والدموع تنهمر من عينه والحشجة تيطو في صوته :
« استودعك الله من قتيل » ورجع وهو يقول « لقد غلبنا الحسين
بالخروج ، ولعمري لقد كان له في أبيه وأخيه عبرة » .

وهكذا لم يلق الحسين بالا لنصيحة عبدالله بن عمر ، كما
ذهب يصح عبدالله بن عباس دبر أذنيه ، اذ قال له وهو يظله :
« لا تخرج الى أهل العراق » فلما لم يصع الى وعظه قال :
« والله اني لأظنك تقتل بين نسائك وابنائك ونسائك كما قتل

عتمان بن عمار « كما قال له كذلك : « اتسبر الى قوم مثلوا اميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ودفقوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم وان كانوا دعوك اليهم - وامر عليهم فاهر نهم ، عماله نجبي بلادهم - فابهم اما دعوك للحرب والقتال ولا آمن عليك ان يبروك ويكدوك ويخالعوك ، ويحدلوك ، وان يستنصروا اليك فيكونوا اشد الناس عليك » فقال له الحسين : « اني استجير الله وانظر » ولم يلتفت الى نصحه . ولم يابه كذلك لقول الفرزدق الشاعر عندما لقيه : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء » .

ولما علم يزيد بن معاوية بخروج الحسين بن علي أرسل عبيد الله بن زياد لمحاربته فخرج اليه مسلم بن عقيل قبل وصول الحسين ، بيد انه قتل في احدى المعارك ، وفي هذه الاثناء وصل الحسين الى الكوفة وهناك قابله الحر بن يزيد التميمي وقال له : ارجع فاني لم ادع لك خلفي حيرا ارجوه « فهم الحسين بالرجوع ولكن اخا مسلم بن عقيل حرضه على متابعة السير حتى ياخذ شارهما .

وحطب الحسين في الناس فقال : « ايها الناس ! انكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن ارضى لله ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الامر من هؤلاء اللعين الماثرين فيكم بالجرور والعدوان ، فان انتم كرهتمونا وجهلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما اتتني به كتبكم اتصرفت عنكم » .

وعندئذ نهض الحر بن يزيد التميمي وعارضه قائلا : « انا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرمسل التي تذكر ، فاحرج الحسين مجموعة من الرسائل الواردة اليه من أهل العراق ، فلما التي لمر عليها بصره قال : انا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك ، وقد امرنا اذا نحن لقنالك الا نفارقك حتى تقدم بك على عبيد الله بن زياد .

ومنع الحر بن يزيد التميمي اصحاب الحسين من ركوب مطاياهم فقال له الحسين : تكلمت أمك ما تريد ؟ فقال الحر : لو كان غيرك قالها ما تركت ذكر أمه ، والله مالي الى ذكر أمك من سبيل الا باحسن ما تقدر عليه .

ونشب القتال بين الفريقين في شهر المحرم عام ٦١ هـ في كربلاء وبينما هم يتقاتلون دوى صوت المؤذن للصلاة فامتأذن الحسين أعداءه في قيام الهدنة بين الطرفين ، حتى يؤدي القوم الصلاة قبل خصومه وقف القتال ورفعوا راية الأمان ، ولم يكذ الحسين ينتهي من صلاته حتى انقض عليه خصومه انقضاضاً واحداً وقتل الحسين ، وقتل معه اثنان وسبعون رجلاً منهم ثلاثة وعشرون من أهل بيته ولب سراويله . ونهب نعله ومناعه وما على النساء وفي ذلك يقول ابن طباطبا في كتابه المعرى في الآداب السلطانية :
 « تم قتل الحسين عليه السلام قتلة شنيعة ، ولقد ظهر منه عنة السلام من الضر . والاحساب والشجاعة والورع ، والخبرة التامة بأداب الحرب والبلاغة ، ومن أهله وأصحابه رضى الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس ، وكرهية الحياة من بعده ، والمقاتلة بين يديه عن بصرة ما لم يشاهد مثله . ووقع النهب والسلب في عسكره وذراريه عليهم السلام ثم حمل النساء رأسه الى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه الى المدينة » .

هذا وقد وجد بحصه عليه السلام ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وأربعون ضربة ، وقد انتلب عشرة من العرسان فداسوا بحبولهم على جنته ، ثم حزوا رأسه وطافوا بها على خشبة في أنحاء الكوفة ثم أرسل أهل بيته من النساء والصبيان الى يزيد ابن معاوية كما أرسل اليه رأس الحسين فلمر بصلبها في الكوفة ثلاثة أيام متتابعة وعندما دخلت المسدة ريب رضى الله عنها على يزيد بن معاوية وجدته بعثت في رأس الحسين بعصاه وهو ينشد بعض الأبيات التي نظهر حقده وتبين ضغينته .

وعندما قتل الحسين صعد ابن زياد المنبر وخطب في الناس قائلاً : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته » فما أن سمع عبد الله ابن عفيف الاردي هذا القنف الملعن حتى قام على المنبر قائلاً : « يا عدو الله ، ان الكذاب انت وأبوك والذي ولاك وأبوه ، تقتل اولاد النبيين ، وتقوم على المنبر مقام الصديقين » .

والباحث في مصرع الحسين يجد أنه قد قتل نتيجة لخداع أهل العراق ، وأنهم استقدموه لديهم لتنفيذ خطتهم ، والانتقام

مه - كما ان وقت سعيد القتل ، كان عقب الهدنة مباشرة وقد تكون الحرب خدعة ولكن الطريقة التي نفذ بها قتل الحسين كانت من ابشع الجرائم التي عرفها التاريخ ، وكانت انتهاكا لحقوق الإنسان ، واهدارا لكرامته في الحياة والموت .

ويرى السير وليام ميور William muir ومن لم يفهم من المؤرخين ان الحسين بانسياقه الى تدبير الخيانة سميا وراء العرش قد ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع الاسلامي وتطلبت من اولى الامر في الدولة الاموية الصحيل بقمعها ، ولكنى ارى ان هذا التنفيذ كان مخالفا لكل ما جاءت به الترائع بل كان في ذاته الجريمة الكبرى فقد استدرج الحسين الى موضع تنفيذ الجريمة ثم قتل غيلة في كربلاء ،

وهذه الجريمة تمتحق القصاص في الشريعة الاسلامية والله جل جلاله يقول في كتابه العزيز « وكنتنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما انزل الله ، فاولئك هم الظالمون » كما قال في سورة البقرة آية ١٦٤ « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »

ولم يشهد التاريخ الاسلامي جريمة افظح من قتل الحسين . بل لم يشهد حاكما ظالما يعلق حثه خصمه في أحد الميادين ثلاثة ايام متتابة . بل يعلق رأس خصمه في أحد الميادين ثلاثة ايام متتابة بل يعلق رأس خصمه بعد أن يعصلها عن جسده هذه الفترة من الايام بعد أن يهش بمصاه هذه الرأس امام اقرب المقربين اليه وهي السيدة ريتب عليها السلام ،

ولو اننا امسكنا خيط الجريمة من اوله لوجدناه يقوم على خطة التآمر والانتقام ، التي تنبه لها بعض خلصاء الحسين واصفيائه فحاولوا صرفه عن الذهاب الى العراق ولكنه بحسن نيته واخلاص طويته حسب ان رعماء العراق لن يخلوه ! وحلله رعماء العراق وكانت مؤامره وكانت لها قصة !!

المؤامرات في العصر العباسي :

ولم تنم العتق في مرقدها طيلة حكم الأمويين بل ظلت الدسائس والمؤامرات تدبر في الظلام وتعمل على تقويض دولتهم ، وبدأت الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة من الطيمية تدعو العباسيين وذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ووجه محمد بن علي العباسي الدعوة إلى الولايات الإسلامية فوجه بعضهم إلى العراق ووجه بعضهم إلى حراسان ووجه الآخرين إلى شتى أطراف الدولة الإسلامية وهناك شرع هؤلاء الدعوة يشرون الدعوة العباسية في الحفاء وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة واختار أبو عكرمة السراج من الدعوة العباسيين داعياً ، وشمر الجمع عن سعد الحد في بث الدعوة العباسية ، ولم يبالوا بما لا قوة من صرب أو صلب أو قتل أو تشريد وعندما مات الإمام محمد بن علي العباسي عام ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) جاء بعده ابنه إبراهيم ، فوضع على عاتقه النهوض بهذه المهمة ، واستعان بأبي مسلم الخراساني الذي كان له اليد الطولى في قيام الدولة العباسية وقد ظل أمر الدعوة العباسية مكتوماً بيد أنه أخذ ينتشر في الخفاء حتى ضبط في حوزة إبراهيم الإمام كتاب إلى أبي مسلم الخراساني يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأدى هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم الإمام ووضعه في غياهب سجون حران ، وقتله ، فتولى شئون الدعوة العباسية أخوه أبو العباس عبد الله ابن محمد وعاونته في تنظيمها أبو سلمة الخلال .

واستطاع العباسيون على أثر ذلك هزيمة الأمويين في الكوفة ، وخفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق عام ١٢٢ هـ - ٧٥٠ م ، واقتفى العباسيون آثار مروان بن محمد أحر الحفاء الأمويين حتى لحقوا به في قرية تسمى « بوسير » من أعمال الفيوم بالوجه القبلي وهناك قتل مروان ، واحتز رأسه ، وأرسل إلى السفاح في الكوفة فسجد شكراً لله على أخذه الشكر لأخيه إبراهيم الإمام وانتهى سلطان بني أمية ، ونجحت الدولة العباسية في قيام الدولة الجديدة تلك الدعوة التي لم تكن سوى مؤامرة من المؤامرات التي دبرت في الحفاء ثم شاءت لها الظروف أن تظهر وأن تمتد وأن تجد لها أعواناً وانصطرا ، يؤمنون بها أشد الإيمان ، ويدافعون عنها أصديق الدفاع حتى تم النصر

للدعوة العباسية وتأسست دولة العباسيين على يد أبي العباس السفاح .

مؤامرة البرامكة :

ولم تخل هذه الدولة التي دامت خمسة قرون - بدأت من عام ١٢٢ هـ وهو العام الذي تولى فيه أبو العباس السفاح الخلافة ودالب عام ٦٥٦ هـ حين سقطت بغداد في أيدي التتار - من مؤامرات شتى دبرت في الظلام ، ولعل أبرز مؤامرة الملت بها هي مؤامرة البرامكة ، وهي مؤامرة اشترك في تدبيرها الحليفة هارون الرشيد ليسترد سلطانه المقتصب ، ويدعم نفوذه ، ويقوى مركزه ، فالعرض في هذه المؤامرة هو الجاني وليس المجنى عليه كما هي العادة في أغلب المؤامرات العباسية .

اما قصة هذه المؤامرة ، فنتلخص في أن الرشيد كان يسمعن بالبرامكة في تدبير أمور ملكه وكانت أسرة البرامكة محوسية تدين بديانة الفرس القديمة فلما ظهر الاسلام ، اعتنقته ، وظهر منها خالد بن برمك الذي تقلد الوزارة في عهد السفاح والتصور ، ويحيى بن خالد البرمكي الذي كان كاتباً لهارون الرشيد وكان صفيه وجليسه يرجع اليه في شئ أمور الحكم ، ويعتمد عليه في مختلف شئون الرعية وقد قام يحيى كما يقول ابن طباطبا : « باعباء الدولة اتم نهوض وسد الثغور ، وتدارك الخلل وجبى الأموال وعمر الأطراف وأظهر رونق الخلافة ، وتصدى لاهمات الملكة ، فأنار حوله الحسد والحسد لما بلغه من منزلة رفيعة ، ومكانة مرموقة عند هارون الرشيد » .

كما استعان الرشيد بجمفر بن يحيى البرمكي وكان يأنس اليه لسهولة اخلاقه ويؤثره على أخيه الفضل الذي اشتهر بفلظة الطباع ، حتى قيل أن الرشيد قال يوماً ليحيى : « يا أبا مال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ، ولا يسمون جمفراً بذلك » فقال يحيى : « لأن الفضل يخلفني ، فقال : فضم الي جمفر لعملاً كاعمال الفضل ، فقال يحيى : ان خدمتك ومنادمتك يشعلانه عن ذلك ، فجعل اليه امر دار الرشيد ، فسمى بالوزير الصغير ايضاً ، ونقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل الي جمفر .

وهكذا كانت أسرة البرامكة تتغفل في خدمة عرش هارون الرشيد . ومن هنا تارت حولها الفتن والإشاعات ، ووجد عمال السوء مجالاً فسيحاً لبث وشاياتهم في أذن هارون الرشيد فنقم عليهم أشد النقمة ، وانتهز الفرصة المواتية للتخلص منهم ، وسبق ذلك أن أصدر أوامره إلى علماته بالأعراض عنهم والاستهتار بهم إذا دخلوا مصره ، ومن ذلك ما رواه الطبري « دخل يحيى بن خالد على الرشيد ، فقام الفلماني إليه ، فقال الرشيد لسرور الخادم : سر الفلماني إلا يقوموا لحجى إذا دخل الدار قال : فدخل فلم يبق إليه أحد . فأنزل لونه ، وكان الفلماني والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقوه . وبالحري أن يسقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً » .

ومن الأسباب التي ذكرها أعداء البرامكة لهارون الرشيد للاعتقاد من هذه الأسرة . وإشراكه في تدبير مؤامره للتخلص منهم اتهمهم بالزبدية والميل إلى دين المجوس ، وعبادة النار ، إذ احتالوا وقالوا للمسلمين « ينبغي أن تجمر المساجد كلها ، وأن تكون في كل مسجد مجمره ، يوضع عليها التند والطيب » وكانوا يدأمرؤا بوضع مجمر في حوف الكعبة ، فأول الأعداء ذلك بأنهم رموا إلى أن يكون الكعبة بيت النار ، وحدث في هذا الوقت أن أذن الرشيد لوزيره جعفر بالزواج من أخته العباسية حتى تحضر مجلسه لكلمه بها ، واشترط عليه أن يكون الزواج دون الخلوة ، بيد أن جعفرأ هام حباً بالعباسية وعاشرها حتى أنجب منها ما أثار غضب الرشيد عليه لمخالفته لأمره . كما حدث أن أطلق جعفر سراح يحيى بن عبد الله من زعماء الشيعة دون أذن الرشيد وكان الرشيد على حد تعبير ابن خلدون « يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فتعلموه على أمره ، وشاركوه في سلطانه » ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، وكانت زبيدة أم المؤمنين تكره البرامكة فلما منها أن يحيى هو الذي دفع بولاية العهد للمأمون دون الأمين .

لهذه الأسباب ولغيرها عمول الرشيد على التخلص من أسرة البرامكة ، وفي مستهل عام ١٨٧ هـ (٨٠٣م) أصدر الرشيد أوامره بأعسدام جعفر والقبض على أبيه وأخته ، وبرؤى الجهشيارى في

كتابه ، الوراء والكتاب ، بغية اللامسة فيقول : ولما عاد الرشيد من الحج سار من الحيرة الى الانبار في السفن وركب جعفر بن يحيى الى الصيد ، وجعل شرب تاره ، ويلهو أخرى ، وتعب الرشيد وهداياه تأتيه ، وعندهم بختيشوع الطيب ، وأبو ذكار الاعمى بغيره ، فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان مبهفصا لعمير وقال : اذهب فحطني برأس جعفر ولا تراجعني فوافاه مسرور بعير اذن ، وهجم عليه ، وأبو ذكار يفتيه .

فلا نجد لكل فتى سيأتي عليه الموت بطرق أو ينادي

فلما دخل مسرور قال جعفر بن يحيى البرمكي : لقد سررتني بمجيتك ، وسؤذي بدحورك على بغير اذن ، فقال : الفى جئت اليه اعظم ، أجب أمير المؤمنين الى ما يريد بك فوضع على رجله فقبلهما وقال له : عاود أمير المؤمنين ، فإن الشراب قد حمله على ذلك ، وقال دعنى أدخل دارى ، فأوصى فقال : الدخول لا سبيل اليه ، وأما الوصية فأوصى بما بذلك . فأوصى ، ثم حملة الى مسزل الرشيد ، وعمل به الى قة . وضرب عنقه ، وأتى برأسه على ترس الى الرشيد ، وببده فى نطع ، ووجه الرشيد فقبض على ابيه واخوته ، وأصحابه ، بالرقعة - اسم مكان - واستأصل شأفتهم .

وهكذا تخلص الرشيد من هذه الاسرة ، والمعروف أنه صادر جميع أموالها من منقولة وثابتة . وتشاء الظروف أن تدبر فى ذلك الوقت مؤامرة لتزع ملك الرشيد ، ويقيم البرامكة بالاشتراك فيها ، فيزداد سخط الرشيد عليهم ، ويموت الوزير يحيى البرمكى فى السجن هما وغما ويتبعه الفضل بعد ذلك بثلاثة أعوام ١٩٣ هـ .

ونكبة البرامكة من أشهر المؤامرات التاريخية التى دبرت فى هذه العصور ، وكان للعرش يد طولى فى تنفيذها والواقع أن كراهية هذه الاسرة لم تكن سوى كراهية العرب لهذا العنصر الدخيل الذى تنقل فى الحكم العربى وقد ظهرت بوادر هذا الامتصاص منذ عهد المنصور ، والمهدي ، والهادي .

قتل ابن المقفع الكاتب الفارسي :

ويكفي أن تذكر تلك المؤامرة التي دبرها أعداء الكاتب الفارسي ابن المقفع مترجم كليله ودمية وغرورها من روائع الادب الفارسي والهندي لقتله ، فقد اتهمه أعداؤه لدى المنصور بالزندقة والمروق عن الدين ، والمروق ببيت النار ، بيت المجوس ؛ كما اتهمه أعداؤه بالتحريف في كتاب الامان الذي كتبه لعبد الله بن علي مسعاه احتس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه ، وكان عبد الله بن علي قد خرج على المنصور ، ثم استقر الرأي بينهما على الامان ، ويقال ان ابن المسعاه شدد في هذا الكتاب الامان - وغلط الايمان على أمير المؤمنين ، فطوى مساه ، واعتق عبيده ، وأحل الناس من بيئته ان يكت عهده لعبد عبد الله أو غيره به ، فأحفظ ذلك المنصور وأسرها في نفسه لابن المقفع .

وكان سفيان بن معاوية من أشد الناس كراهية لابن المقفع ، ورأس هذه المؤامرة المذبذبة لقتله والتخلص منه ، وكان ابن المقفع ، يكره سفيان كذلك ويسخر منه سخيرة شديدة ، وكان سفيان يصطفي عليه لأشياء أخرى كثيرة منها أنه كان يهزأ به ويسأله عن الشيء بعد الشيء فإذا أحب قال له : أخطأت . ويضحك ، فلما كثر ذلك على سفيان ، غصب ، فافتري عليه ، فقال له ابن المقفع : يا ابن المعتلحة ! والله ما اكتف أمك برجال أهل العراق حتى تعذبهم لأهل الشام !

وساعد أبو أيوب المورياني أحد علماء ذلك العصر سفيان بن معاوية في تنفيذ خطته فمضي يسر في أذن المنصور بوجوب التخلص من ابن المقفع ، وكان أبو أيوب يحقد حفدا شديدا على مكانة ابن المقفع من المنصور ، وتآلم أشد الآلم حينما قال له أبو جعفر المنصور ذات يوم وقد أنكروا عليه شيئا : كأنك تحسب أنني لا أعرف موضع اكتف الخلق وهو ابن المقفع مولاي ، فلم يزل أبو أيوب خائفا منه ، يسعى ويلب في أمره حتى قتله .

لهذه الأسباب وغيرها ، نعم المنصور على ابن المقفع ، وأصدر أمره بإعدامه ، واقتيد ابن المقفع الى مقصورة كبيرة ، ولما رآه سفيان بن معاوية قال له : وقعت والله ! فاجاب ابن المقفع .

اشهدك الله ، فقال سفيان : فمعتلحه ، كما ذكرت ، ان لم اقلك
قتلة لم يقتل بها أحد قبلك . فأجاب ابن المقفع . انك لتقتلني ،
فتقتل بقتلي ألف نفس . ولو قتل ألف مثلك ما وفوا بواحد ثم
اشهد قائلا :

إذا ما مات على مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحده ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير

وهكذا ست هذه المؤامرة التي دبرت للتخلص من ابن المقفع ،
وعندي أن هذه المؤامرة لم تكن سوى مؤامرة سياسية دبرت ضد
سلطان الفرس ، إذ بدأ نفوذهم يزداد في العصر العباسي بشكل
واضح فلموس في شتى ميادين السياسة والأدب والعلم ، مما
سبب الضيق للعرب الذين كانوا يريدون أن تخلص لهم أمور
الدولة جميعا ، ولا يبدو هناك أي أثر للنفوذ الاجبي السحيق .

ولقد كانت الزندقة تكاثرت بنحسها الخلفاء للتخلص من
أبراهيم بن يحيى ، فانهم بالزندقة أناس كثيرون منهم بشار بن برد ،
ومطيع ابن أبي اس ، وحامد عجرد ، وصالح بن عبد القدوس وغيرهم .

وأمن المهدي في قتل الملحدين والمداهني عن الدين لظهورهم
في أيامه واعلاهم باعتقالاتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني
وابن ريسان ومرقيون وغيرها من كتب الفرس . وكان بعض هؤلاء
الملحدين ملحدين حقا ، وأما الآخرون فاختلوا بالشبهات أو الزور .
اذ اتخذ بعض الناس الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء
كانوا من الشعراء والعلماء أم الولاة والأمراء .

الصراع بين العرب والموالي :

وقد بدأ الصراع بين العرب والموالي منذ صدر الدولة العباسية
اذ أنه لما جاء الاسلام تكونت للعرب أمة ، وكانت فيها خصائص
الامة من اتعاد لغة ودين وميول وكانت هناك حكومة على رأسها
حاكم واستطاعت الامصار على أضخم أمتين في ذلك العصر وهما
الفرس والروم . ولكن لم يلبث أن تفلغل العنصر الفارسي في
الامة العربية ، ورأينا بعد ذلك مصر في سيار بته العرب الى أن

الفرس تريد أن يهلك العرب فأولى أن يتحد العرب كما اتحد
الفرس . بل رأينا الأمر يصل إلى أكثر من ذلك فقد اتفقت قبائل
العرب من ربيعة ومضر واليمن على وصح الحرب والاجتماع على
مقاتلة أبي مسلم الخرماني ولكن أبا مسلم الخرماني وقومه
استطاعوا الانتصار بأشغال نار الفتنة والفرقة بين العرب من
جديده .

فلما جاءت الدولة العباسية ازداد نفوذ الموالي ، وامتدات
قصور الحلفاء بهم ، واستخدمهم الخلفاء في أعمال شتى وقصرت
المراكز الكبيرة كالوزارة على الفرس ، ونقشت التقاليد والعادات
العراقية في الدولة كاحياء يوم النوروز ، وليس القلنسوة ، وظهر
كتاب أدباء فرس ارتفع صيتهم وعلا ذكرهم عن الأدباء العرب .

حيث أنه وحده العرب أن الخطر مستطير ، وأن الأمر لا يسكت
عنه ، وساعدت الظروف على تنفيذ هذه المؤامرة .

مؤامرات الحرس التركي في الدولة العباسية :

وهكذا ظلت المؤامرات سلاحاً من أسلحة الحكم في العصر
العباسي سواء أكانت تدبر من الرعية أم الخلفاء . وما أن انتصف
القرن الثالث الهجري حتى نقشت دواعي الانحلال في الدولة
العباسية ، وأحد نفوذ الحرس التركي يتغلغل في الحكم تعلقاً
واضحاً ، وكثرت المؤامرات والسياسات في القصر وحوله ، وبدأ
الحلفاء يسقطون نتيجة لها خليفة إثر خليفة وعندما تولى المتوكل
على الله الخلافة (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه
المؤيد والمنتصر ، لمحبه لقبيلة أم المعتز واستجابة لتلك السياسات
والوشايات التي دبرت ضد المنتصر والمؤيد ، ففضض المنتصر لهذا
القرار ودبر مع الاتراك مؤامرة لاغتيال أبيه ، وحاول بعض الاتراك
الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل عيلة بدمشق ولكنهم أخفقوا في
تمهيد المؤامرة بفضل بقاء الكبير والفتح بن خاقان ، فاتفق هـ بنسأ
الصغير هـ مع هـ باعز التركي هـ على قتل المتوكل قسريه بالسيف
واستقرت الخلافة لابنه المنتصر هـ

وبعد ذلك خلع المستعصم بالله وولى المعتز بموصل مؤامره .
 دبرها الحرس التركي عام ٢٥٢ هـ ، أما الخليفة المقتدر فقد خلع
 مرتين وغلب على أمره وذبح في النهاية ، وضاعت في عهد افرقيا
 وأوشكت مصر أن تضيق ، واستقل أمراء حمدان بالموصل .
 واستطاع البيزنطيون أن يشحنوا غاراتهم المتصلة على الحدود
 المتاخمة ، وأصبح الأمر والنهي بيد أمه وكانت تسمى (السيدة)
 وبلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت اذا غضبت هي أو : قهرمانتها ،
 من أحد الوزراء كان مصيره العزل من غير شك ، وبلغ من عظم
 نفوذها أن عنيت قهرمانتها : ثومال ، صاحبة المطالم ، وأدى
 تدخل النساء في أمور الدولة الى ضعفها وتأخرها وتدهورها الى
 التضييق .

وكان نتيجة لذلك أن دبرت المؤامرات لاغتيال المقتدر وكان
 رأس المؤامرة مؤنس الخادم الذي قتله وبرك جثته مكشوفة بضعة
 أيام حتى دفن بالموصع الذي مات فيه وذلك يوم الاربعاء لثلاث
 شعبان من شوال عام ٣٢٠ هـ . وهكذا أودت المؤامرة السياسية
 بكيان هذه الدولة !

الفصل الثالث

مؤامرات من المصريين الفاطمي والايوبي

نحاول في هذا البحث المؤامرات التي دبرت في المصريين الفاطمي والايوبي ، وقد دبرت الاولى للتخلص من حياة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، كما دبرت الثانية لانهاء حياة صلاح الدين الايوبي . وبجحت الاولى بينما فشلت الثانية ، لان الاولى كانت تنبع من بغض الشعب ، واردة الطبقات للحكومة التي ترسفت في اغلال الظلم ، وتمن تحت انتقال الاستعباد ، أما الثانية فقد فشلت لانها كانت ارادة فردية لا ارادة المجموع ، وكانت تنبع من نفوس مريضة ، وقلوب حاوية . وتصدر عن صدور اعماها الغل ، وأصلها الحقد ، وذهب برشادها ، قمضت تدبر في الظلام وتسج حيوط الفتنة ، ولكن القدر كان لها بالمرصاد خيام بالفشل الذريع ، وكان مصيرها الخذلان المبين .

وقبل أن نستعرض المؤامرة التي دبرت لاغتيال الحاكم بأمر الله ، والصورة التي تمت فيها ، نبحث عن الامسباب التي دعت الى خروجها الى الوجود واستدعت الاتفاق على تنفيذها وضرورة تحقيقها مهما عانى المؤتمرون في سبيلها من مشكلات وعوائق ومهما كان المصير الذي ينتظرهم محقوقاً بالمخاطر ولهاالك .

سياسة الفتك والارهاب في عهد الحاكم بأمر الله :

كان الحاكم بأمر الله مثالا للحاكم المستبد الجبار . وقد ولى خمسون مصر وله من العمر إحدى عشرة سنة ونصف فتولى الوصاية عليه مريبه وأستاذة « برحوان » الخادم ولكن لم يلبث أن غضب الحاكم على برحوان وألب عليه رجال القصر وذات يوم استدعى الحاكم

بأمر الله : الحسين بن جواهر قائد البعاد وعهد اليه مهمة قتل
برجوان واتفى معه ان يطلقه في القصر ذات مساء ، ولا جاء في
الموعد المحدد لتنفيذ الجريمة ، اسندعي الحاكم برجوان لركوب معه
وانظره في بستان قصر اللؤلؤة الذي يقع على الخليج وكان معه
ريدان حامل المظلة فوافاه برجوان هناك وبعد أن سلم على
الحاكم سار معه حتى خرج من باب البستان فوب ريدان حينذاك
على برجوان وطعمه في عنقه بسكين وانقضت عليه جماعة من أتباع
ريدان وأنجموه صرعا بالخناجر فسقط على الارض يتنفس في بركة
من الدماء ، وأحد المؤمنون رأسه ، ودفعوه حيا قتل في ربيع
الثاني عام ٣٩٠ هـ (ابريل عام ٩٩٩ م)

وهكذا شهدت السنوات الأولى من عهد الحاكم بأمر الله العاطلي
سياسة الفتك وسفك الدماء ، والتخلص من الخصوم بإبشع الدرائع
وأدنا الطرق ، وقد عميت الفوضى في البلاد من جراء مقتل برجوان
واضطرب الأمن : وساد الشعب ، وخرج ريدان يصبح في الجماعير
الملتعة حول الجنة : (من كان في الطاعة لينصرف الى منزله ويكر
الى القصر الممور) وانصرف الناس منزعجين وفي نفس المساء
اتخذ الحاكم أهبة لاصدار الاوامر ، ومصادرة اموال برجوان اطائلة
واختفى اصداؤه من الميادين .

ولم تمض على هذا الحادث الايام فترة وجيزة حتى ضرب الحاكم
بأمر الله ضربة أخرى لا تقل قسوة ولا عفا عن الضربة الاولى ، وهي
تدمير مؤامرة لقتل « الحسن بن عمار » زعيم قبيلة « كتامة » وامين
الدولة السابق ، وكانت قبيلته اقوى القبائل المغربية وعماد الدولة
الفاطمية منذ نشأتها فتخاف الحاكم من نفوذه وعصبية ، ودبر مؤامرة
للتخلص منه ، وقمع شوكرته . وفي ذات مساء حين انصرفه من
القصر ، انقض عليه جماعة من الفلمكان الترك كانت قد تربصت
للفتك به ، فقتلوه وحملوا رأسه الى الحاكم -

ولم تضر ثلاثة اموام على مصرع ابن عمار حتى قتل الحاكم
وريره (فهد بن ابراهيم النصراني) بعد أن قضى في منصبه
ما يقرب من ست سنين ، وعين الحاكم بدلا منه علي بن عمر العداس
ولكن مصيره لم يكن أحسن من مصير سابقه : ففضب عليه الحاكم

وقته ، وقتل معه الخادم « ديدان » الصقلي حامل المظلة ، ثم قتل عددا كبيرا من العظماء والخاصة ، وتذكر ممن كانوا من ضحايا القاضي الحسين بن النعمان الذي قتل وأحرقت جثته ، ومن الأساليب الوحشية التي كان الحاكم يستخدمها في تعذيب ضحاياه القتل جوعا (فقتل جماعة من الإهيان صبرا) .

وفي عام ٣٩٩ هـ ألقى الحاكم القبض على عدد كبير من الكتاب والخدم في القصر وأمر بتعذيبهم وقتلهم ، فأنقض عليهم رجاله وقطعوا أريهم وأذرعهم ثم أرفقوا أرواحهم وقتل الفضل بن صالح وكان من حيرة رجال الجيش المحنكين وقواده المدربين . وقطع يد صاحب الشرطة والحسية « عين » وكان من الحدم الصقلية المدن تفاؤوا في حنعة الحاكم وتنفيذ أوامره .

كما أمر الحاكم بقتل الوزير الحسين بن طاهر الوزان وعبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب وأخيه الحسين صاحب الوساطة والسفارة .

وهكذا توالى مذبحة الفتك والارهاب في عهد الحاكم بأمر الله ، وأصبح القتل أو الاعتقال السياسي ، أمرا عاديا يحدث بين يوم وآخر بل بين ساعة وأخرى ، وتطلع الناس إلى الخلاص من هذا الظلم الذي يعيشون بين أكفانه وهذا الاستعباد الذي يذوقون كنوسه غدقا . ولكن الحاكم بأمر الله كان يقبض على السلطة بيد من حديد ، ويبعث من عيونه وأنصاره في كل مكان ويهدد الخارجين عليه والشاقيين عصا طاعته بالويل والثبور وعظائم الأمور .

تناقض شخصية الحاكم بأمر الله :

وكانت شخصية الحاكم نفسه مزيجا من الإيهام والغموض ، والاضطراب والقلق وكانت أخلاقه تجمع بين المتناقضات ، فمن شجاعة وإقدام إلى جبن واحتجام ومن حجة للعلم إلى انتقام من العلماء ، ومن ميل إلى الإصلاح إلى ميل للتفاسد . وقد لزم ارتداء الصوف سبع سنين وامتنع عن دخول الحمام ، وأقام سنتين يجلس في ضوء الشموع ليلا ونهارا ثم تآقت نفسه أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مئة . وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر

وعثمان وعائشة وطلحة ومعاوية وعمرو بن العاص ، وأمر بقتل الكلاب وبيع الفقاع ، وهو شراب يتخذ من الشعير ويسمى بذلك لا يرتفع فيه الزينة ، ثم نهى عنه ونهى عن النظر إلى النجوم وكان ينظر فيها ، ونهى النجسين وكان يرصد النجوم وزحل والمريخ وغيرهما من الكواكب وقيل أنه كان يستمد سياسة سفاك النعماء من طوابع هذه النجوم . ومنع الناس من صلاة التراويح عشرين ثم أباحها . وقطع الكروم ومنع بيع العنب ، ولم يبق في ولايته كوم ، وأراق خمسة آلاف جرة من العسل في البحر خوفا من أن يستخدمها الناس في صناعة النبيذ وحرم أكل اللوخية والسمك وجعل لأهل النعمة علامات يعرفون بها ، وألبس اليهود العمائم السود ، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين في سفينة ، وألا يستخدموا غلاما مسلما ، وألا يركبوا حمار مسلم ، ولم يبق في ولايته ديرا ولا كنيسة إلا وهما وبقي سنة اثنتين وأربعمائة عن بيع الرطب . ثم جمع منه شيئا عظيما وأمر بإحراقه .

وأمر الحاكم بأمر الله بالليل : فأمر الناس بالاستيقاظ في الليل وأمر بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت وأبواب النور والمحال المختلفة في جميع طرقات القاهرة والفسطاط ، وخصص العسس ، للإشراف على تنفيذ هذه الأوامر في أمانة ودقة ، وعوقب المخالف بالشنطة .

ومنع الحاكم بأمر الله النساء الخروج بالليل بعد أن أزداد العسوة في البلاد ، وكثرت جرائم هتك العرض والتحريض على ارتكاب المنكرات ، ولم يلبث أن أصدر أوامره عقب ذلك بمنع النساء الخروج إلى الطرقات سواء بالليل أو النهار ولم يستثن من ذلك غير النساء المتطلبات للشرع أو الخارجات إلى الحج أو المسافرات أو القبايل أو غامصات الموتى أو نحو ذلك ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ، وأمر الأساقفة بعدم عمل أخفاف لهم ، وأمر الباعة أن يجولوا بالأرقة والحارات للبيع للنساء وظل النساء يعانين هذه المحنة طيلة سبعة أعوام .

ادعى الحاكم النبوة وغضب الشعب :

وادعى الحاكم بأمر الله النبوة وأصدر بعض الفتاوى باسمه

« الحاكم الرحمن الرحيم » وشاع خبر ادعائه للنبوة وتقرب اليه جماعة من الجهال ، فكانوا اذا لاقيه قالوا « السلام عليك يا واحد يا أحد ايا محبى يا مبيت ! وصارت له جماعة من الدعاة ينعون « أوباش الناس »

وأزاء هذا كله ازداد غضب الشعب على الحاكم بأمر الله ، وأخذ الناس يستخرون منه ، ويستهرثون بحكمه ، ويستخفون بمحضه . وكان المصريون موقورين منه فكانوا يلبسون اليه الرقاق المختومة بالنعاء عليه ، والسب له ولاسلامه ، وبلغ من تهكمهم عليه أن صنعوا له تمثال امرأة من قراطيس نجف وأزارر ووضعوه فى طريقه حتى على أنها امرأة تقدم اليه شعاعة أو مظلمة ، فتقسم الحاكم وأخفاها من بينها فلما فتحها رأى فيها ما أثار النساء فى عروقه ، وما استعظم أن يجده فى رقعة من الورق فالتفت وقال : انظروا هذه المرأة . من هى ؟ فقيل له انها مصنوعة من قراطيس ، تعلم أنهم سخروا منه ورائت انكابة على وجهه وقفل راجعا لتوه الى القاهرة .

تدبير مؤامرة اغتيال الحاكم :

وكانت سبب الملك أخت الحاكم من أشد المتذمرين من حكمه ، وكانت تتحين المرمى لخلاص منه ، ولا سيما لأن الحاكم كان يشدد الحاق عليها ، ويراقبها مراقبة دقيقة ، ورمى عليها سوء سلوكها وكثرة فضائحها ، وكان يهددها بانفاذ القوايل اليها لاستبرائها مما أوغر صدرها ، وزادها حنقا وغیظا فراسلت سبب الملك ابن دواس - وكان من شيوخ قبيلة كتامة المغربية وأعيانها - مع بعض حماتها وحواصها وهى بمبول له - فى اليك أمر لابد فى فيه من الاجتماع بك ، فاما تنكرت وجنتنى لئلا ! او فعلت أنا ذلك . فقال : أنا عبدك والأمر لك ، فلم يكفها هذا الكلام ، ولم يبعث الطمأنينة فى نفسها بل توجهت اليه ليلا فى داره متكره ولم تصحب معها أحدا ، فلما دخلت عليه قام وقبل الأرض بين يديها ووقف فى خدمتها ، فأمرته بالجلوس ثم قالت : باسميف الدولة قد حثت فى أمر أحرس به نفسى ونفسيك والمسلمين ، وبك فيه الحظ الأوفر وأريد مساعدتك فيه فقال : أنا عبدك . فاستحلفتها ، واستوثقت منه وقال له . « أنت تعلم ما يقصده أخى منك وأنه

مى يمكن منك لم يبق عليك ، وكذا اما ، ونحن على خطر عظيم .
وقد اصاف الى ذلك تظاهرة بادعائه الالوهية وهتفكه باموس
النريفة ، وباموس آبائه ، وقد زاد جنوه ، وأنا خائفه أن يبور
المسلمون عليه وبتلوه ويقتلونا معه . وتنقص هذه الدولة أعيه
انقضاء فقال سيف الدولة بن دواس . صدقت يا مولاتى . فما
الرأى ؟ قالت . اقتله فستريح منه فاذا تم لنا ذلك أقمنا ولده
موضعه وبذلنا الأموال وكنت أنت صاحب جيشه ومديره ، وشيخ
الدولة العائم بأمره ، وأنا امرأة من وراء حجاب وليس عرصى الا
السلامة منه ، وأن أعيش بينكم آمنة من القضية .

ثم أقطعت ست الملك اقطاعات واسعة من الارض ، ووعدته
بالخلع و « المراكب السنية » فقال لها عند ذاك : مرى بأمرك .
فقال : أريد عيدين من عبيدك تفق بهما فى سرك وتتفق معهما
فى ايجاز المهمة . فأحضر ابن دواس عيدين وصمهما بالشهامة
فاستحلتتهما ست الملك ووهبتهما ألف دينار ومجموعة من الثياب
والخيل والاقطاعات وسحر ذلك وقالت لهما : أريد منكما أن تصعدا
غدا الى الجبل فان الحاكم سيخرج فى نوبته ولن يبقى معه غير
القراقى الركابى وربما رده . وسيدخل شعب الجبل ويتفرق بنفسه
فأخرجاه عليه واقتلاه ، واقتلا القراقى والصبى ان كانا معه
وأعطتهما ست الملك سكينتين من عمل المغاربة تسمى الواحدة منهما
« يافورت » ولها رأس كراس الميضع الذى يفصد به الحجام ،
ورجعت الى القصر وقد أحكمت الامر واتقنته ووقعت تراقب تنفيذ
للأمر من قصرها المواجه لقصر الحاكم .

ولم يجد ابن دواس عضاضة من الاشتراك فى هذه المؤامرة
اطاعة لأمر ست الملك من ناحية ولعنائوته الشخصية للحاكم من
ناحية أخرى . وما يظهر اثر هذه المداوة أن الحاكم استنذاه
ذات يوم الى قصره وعول على قتله فقال له ابن دواس : قد
خضعت أباك ولى عليكم حقوق كثيرة يجب لثلاثها المراجعة وقد قام
فى نفسى أنك قاتلى فأنا مجتهد فى دفعك بغاية جهدى وليس لك
حاجة الى حضورى فى قصرك فان كان باطن رأيك مثل ظاهره
فنعنى على حال ، فانه لا ضرر عليك فى تأخرى عن حضور
قصرك وان كنت تريد بى سوطا فلان تقتلتى فى دارى بين أهلى

وولدى يكفنونني ويتولونني أحب الى من أن تفتلني في
وتطرحني تاكل الكلاب الحى » -

وقد عفا عنه الحاكم في هذه المرة بعد أن أثار هذه الـ
لا تزال ثقلة وتؤرقه ؛ وتزلزل أقدامه زلزلا شديدا ؛ فلز
لحاكم فائرة حتى يتخلص منه كل التلخص ويسلمه الى الم
ولذلك نفر ابن دواس الى تنفيذ هذه المؤامرة بصدر رحب
ونفس راضية وأمر العبيدين بالاستعداد لتحقيقها .

بجاح المؤامرة :

وفي الليلة المحددة لتعبد الجريمة تأخر الحاكم في الخروج
والطواي ، وسبب ذلك أنه كان قد رأى في طالعها شيئا مقشوما
نصرح بذلك الى والدته ، وكانت تعيده ويعيدها حيا ، فتضرعت
اليه الا يخرج فوعدها بذلك . بيد أنه ظل في سريره أرقا لا يزور
الأم جفنيه ، ويلم به السهاد ، وشعر بصيق شديد في صدره
وعبء ثقيل يرحى عليه ، حتى مضى من الليل فلشاه ؛ وحيتق لم
يطق الحساكم صبرا ، وبهض صغرا وانطلق الى خارج القصر ،
وامتطى صهوة حماره الأشهب ، وكان يؤثر ركوب الحمير ولا سيما
الشهباء منها وتبمه كعادته « أبو عروس » صاحب العسس أو
« كبر الشرطة » ودقت له الطول ويقم في الأبواق . ولما خرج
الحاكم من درب الصباغ طلب من صاحب العسس أن ينسحب
كما ود نسيما صاحب التواليف ولم يصعبه سسوى اثنين من
الركابية الدين يصحبونه لمعالجة شئون الدواب التي يركبها ؛
وسرع يتوغل في شعاب جبل المقطم . وقد حكى أبو عروس قبل
أن يفارقه أنه صعد الجبل ووقف على تل كبير ويظر الى المحوم
وقال : انا لله وانا اليه راجعون وصرت بيد على يد . وقال : ظهرت
يا مشتموم ! ثم سار في الجبل وعارضه عشرة فوارس من بنى قسره
وقالوا : قد طال مقامنا على الباب وانا من العاقبة والحاجة مانسأل
معه حسن النظر والاحسان ، فأمر الحاكم « القرافي » أن يحملهم
الى صاحب بيت المال ويأمره أن يعطيهم عشرة آلاف درهم ، وقالوا
لا : نعل مولانا ينكر نعرصنا له في هذا المكان فيأمر بنا بمكره .

ونحن نريد الأمان قبل الإحسان ، فمما وقفنا ذلا من الحاجة :
 قاعطاهم الأمان ورد القرافي معهم ، وبقي هو والصبي . وسار
 إلى شعب الجبل الذي جرت عادته بدخوله ! وقد كمن العبدان
 الأسودان له ، وقد قرب الصباح ، فوثبنا عليه ، وطرحاه إلى
 الأرض فصاح . ويلكما ما نريئان ؟ فقطعا يديه من رأس كتفيه ،
 وثمة حوفة . وأخرجنا ماقية ، ولقاء في كساء . وقبلا الصبي .
 وحملنا الحاكم إلى ابن دواس بعد أن ثبتنا الحمار ، فحمله ابن دواس
 مع العبدین إلى أخته ست الملك فدفتته في مجلسها ، وكتمت أمره ،
 وأطلقت لابن دواس والعبدین مالا كثيرا وبيابا وأحسرت خطير الملك
 صاحب ديوان الانشاء ، وعرفه الحال ، واستحلفته على الطاعة
 والوفاء وأوصته بمكاتبه ولئى العهد ابن الحاكم وكان معيما بدمشق
 في هذه الآونة .

رواية تاريخية أخرى في مصرع الحاكم :

وقد روى القصاعى في مصرعه وجها آخر فعال . خرج الحاكم
 إلى الجبل المعروف بالمقطم ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال
 هذه السنة (سنة احدى عشرة واربعمائة هجرية) فطاف ليلته
 كلها ، وأصبح عند قبر الفقاعى ثم توجه شرقى حنوان ، موصع
 بالمقطم ، ومعه ركابيان مرد أحدهما مع نفر من العرب وأمر لهم
 بحاضرة ، ثم عاد الركابى الآخر وذكر أنه فارقه عند قبر الفقاعى
 والقصبة وأصبح الناس على رسمهم ، فخرجوا معهم الموكب
 والقضاة والأشراف وانقودوا عند الجبل إلى آخر النهار ثم رجعوا
 إلى القاهرة ، ثم عادوا ففعلوا ثلاثة أيام متوالية ثم خرج مظهر
 صاحب المظلة ونسيم صاحب السر وابن مسكين صاحب الرميح
 وجماعة من الأولياء من بنى كتامة والقضاة وأرباب النولة فلبثوا
 دير القصر بالقرب من حلوان وأمضوا في الجبل ، فبعثناهم
 كذلك بصروا بالحمار الذى كان يركبه الحاكم وقد خربت يده
 بسيفه فقطعنا ، وعليه صرجه ولجامه ، فقتبموا الأثر ، فإذا
 أثر راجل خلف أثر الحمار ، وأثر راجل أمامه ، فقصصوا
 الأثر حتى أتوا إلى البيركة إلى شرقى حلوان ، فنزلها بعض الرحالة

فوجد فيها ثيابا موهى سبع حبات مزورة لم تحل أوزارها وفيها
أثر السكاكين فقتلوا فتبه ، وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة
أشهر وكانت ولايته على مصر خمساً وعشرين سنة وشهرًا
واحداً .

وهكذا لقي الحاكم مصرعه ، وتم تنفيذ المؤامرة في الروايتين
ونجح المؤتمرون في التخلص من الخليفة الظالم ويذهب بعض
المؤرخين إلى تبرئته سم الملك من دم أخيها ويعتمد هؤلاء المؤرخون
على رواية عز الدين المسيحي في تاريخه وقوامها أن رجلا ثائرا في
الصفد أعلن حش الفص عليه أنه قتل الحاكم في جملة أنفس ،
وأظهر قطعة من جند رأس الحاكم وقطعة من القسوة التي كانت
عليه ، ولما سألته المحققون عن كيفية تنفيذ الجريمة أخرج سكينًا
عن جيبه وطقن بها نفسه فخر على الأرض قتيلًا .

ونحن لا نعلم أن بعضه على رواية هذا الثائر ونصليق
ما صرح به من اشتراكه في تنفيذ المؤامرة وإن كنا لا نكذب القصة
التي رواها المسيحي من أساسها .

ولكن إجماع كثير من المؤرخين على اسراك سميت الملك في
سعيد هذه المؤامرة دليل على بيتها الأكيدة في وضع حد لحياة
أخيها .

ويروي صاحب النجوم الزاهرة أن الفواد أرسلوا إليها
وسألوها عنه غيب اختعائه فعالت : ذكر لي أنه يغيب سبعة أيام ،
وما هنا إلا الخير ، فأنصرفوا وهم مطمئنون ولم تزل ترنب الأمور
وتعرق الأموال ، وتستحلف الجند حتى جاء اليوم السابع فألبست
أبا الحسن على بن الحاكم أوفر الثياب ، واستندعت ابن دواس
وقالت له : المفلح في قيام هذه الدولة عليك ، وتديروها موكل
الملك ، وهذا الصبي ولدك ، بأبدل في خدمتهما وسعك ، فقبل الأرض
وعدها بالطاعة ؛ ووصعت التاج على رأس الصبي وهو تاج عظيم
من الجواهر كان تاج المقرج أبيه ولم يوجد في خزنة أبيه مثله
وأركبت أبا الحسن مركبا من مراكب الخليفة ، وخرج بين يديه
الوزير وأرباب الدولة ، قلما صار إلى باب النصر صاح الوزير :
يا عميد الدولة ! مولانا السينة تقول لكم : هذا مولاكم فمسلموا
عليه فقبلوا الأرض بأجمعهم وارتفعت الأصوات بالتهليل

واتكبر ولقبوه الطاهر لا عزار دين الله وأعدل الناس عليه أرواحه
مبايعوه *

وقد يكون هذه المؤامرة على جانب كبير من القسوة والعنف
مما لا تسمح به القوانين الموصوعة ولكن قسوة المحاكم وظلمه .
وسفكه بدماء ، وتقطيعه للأشلاء ، وإرهاقه للأرواح كانت تتطلب
تدخلا من الشعب حتى يصف عند حده . ولا يتطاول في صلاته
وعيشه *

وهكذا نجحت هذه المؤامرة التي دبرت في المعتاد ، وأسفل
الاستار على حياة حاكم ظالم صرحت بظلمه الإصمال ، وتلجى بذكره
السائلة والركبان *

مؤامرة اغتيال صلاح الدين وفشلها : -

أما المؤامرة الثانية التي نعرضها في هذا البحث فهي المؤامرة
التي دبرت في مصر الأيوبي لقتل صلاح الدين وقد شاء لها
القدر أن تنوء بالقتل الدريع ، فعقب اسحاب العريج من مصر
في ١٨ يناير سنة ١١٦٩ م بما أن أدركهم أياض من الاستيلاء عليها
وحاربهم التوحيق في وضوح أيديهم على خواتها ، أحس شاور أن
الميدان قد حلاله وأمه أصبح قاب قوسين أو أدنى من انصر ، ونظر
حوله فوجد شيركوه وصلاح الدين في جيش لجب جبار جرار ،
فأدركه الروع ، وحاف أن يبطش به الجيش ذات يوم ويقصى عليه
قضاء ميرما *

وأخذ شاور يقلب وجوه الرأي وأحرا اهتدى الى أن يقدم
وليمة ويدعو إليها شيركوه وصلاح الدين وأمر رجاله بالاستعداد
للوليمة وتجهيز الاطعمة وكان ابن شاور على علم بهئنه المؤامرة
حين بدايتها فتصح أباه بقوله : لأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد
اسلامية ، خير من أن نقتل وقت ملكها الأفرنج فإنه ليس بملك وبين
عزهم الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه *

ولكن أخيرا هذه المؤامرة وصلت صلاح الدين فأراد أن
يدافع عن نفسه ويحتل بقول انقائل : اقتل عموك قبل أن يقتلك
فاتفق مع عز الدين جورديك على قتل شاور وأخبروا سعد الدين

خبر كوه بذلك فنهامهم ولكنهم بينوا له الشر المستطير الذي يهددهم
إذا لم يبادروا باستئصال الداء قبل استفحاله ، وحسنت أن كان
أصعد الدين في زيارة قبر الإمام الشافعي فانتهمزوا هذه الفرصة
وانقضوا على شاور . والقوه عن حرسه وهرب أصحابه وأخذ
هو أسيرا ، ولم يشأوا أن يقتلوه بغير إذن من شركوه فسجنوه
في خيمة وأقاموا الحراس لحراسته خوفا من فراره ، فلما علم
شركوه بذلك عاد مسرعا ولم يستطع إلا أن يوافق على بقية
فصول القصة لا سيما أن العاضد لدين الله الخليفة العاطمي بمصر
أرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله ، وتابع
الرسول في ذلك فعملوه وحملوا رأسه إلى القصر .

وهكذا يشاء القدر أن يموت هذه المؤامرة التي دبرها شاور
ضد صلاح الدين وأسد الدين في مهنتها ، يشاء القدر أن يرتد
السهم إلى نحر مدبرها وبصح صلاح الدين يديه على خيوط
المؤامرة قبل تنفيذها ، تعتمز على التخلص من رأس الانعسى أو
الرأس المدبرة ، وتنتهي فصول المؤامرة بمصرع شاور ولم يبق
للفرنجة أعوان في مصر ، ولذلك عمت الفرحة في البلاد بل أن الورج
العصامي في * سمط النجوم * يقول أن بغداد طربت لخروج
الفرنج من مصر وأغلقت الأسواق وفرح المسلمون فرحا شديدا .

مؤامرات أخرى من عملاء الاستعمار ضد صلاح الدين

ولم يشأ أعوان الفرنج واذئاب الاستعمار أن يجعلوا هذه
المؤامرة خاتمة المؤامرات ضد حياة صلاح الدين . فدبروا مؤامرة
لاغتياله ولرسل شفيح الحشاشين سنان أحمد جواسيسه ليقتله
غيلة وعدوانا ، غير أنه لم يكدر يصل إلى باب خيمته حتى
انقض عليه أحد أنصار صلاح الدين فأرداه قتيلا .

وحدث في أثناء حصار * أعزاز * بالأقليم الشمالي أن كان
صلاح الدين يحضر إلى خيمة أحد الأمراء على مقربة من المنحنيات
لمشاهدة الآلات . وترتيب المهمات . وحض الرجال والمث على
القتال فعجز عليه أحد الحشاشين ، وكانوا طائفة دنبة تخرجت
على طاعة صلاح الدين سكين فعافته صفائح الحديد التي كان

يرد إليها دوى رأسه فمضت الطعنة أن تصيبه بسوء غير أن المديّة
 لفحت خده فحدثته فأمسك صلاح الدين بتلابيه وحده من
 شعره ، ووقع عليه وركبه وهنا أدركه سيف الدين ياركوج أحد
 أتباع صلاح الدين فقصى عليه في الحال . فهجم حشاش
 آخر على صلاح الدين فاعتصره الأمير داود بن منكلاّن وصده
 غير أن الحشاش أصاب الأمير في جنبه . فلما رأى حشاش ثالث
 ما أصاب رميله استأمد وانقص على صلاح الدين ، غير أن
 الأمير على بن أبى الفوارى صده وأمسكه من تحت أبطه فنزل
 حركته وجذب يده إلى الخلف حتى لا يمكنه من الضرب ، فحاج
 الحشاش : « أقتلوني معه فقد قتلنى وأذهب قوتى وأدهلنى »
 فطعنه أحدهم طعنة بسيفه . فخز على الأرض يتخبط في بركه
 من الدماء وهنا دخل إلى المعركة فدائى من الحشاشين غير أن
 السوق لم تكمل طمحه حتى انقضوا عليه انقضاض الأسد على
 الفريسة وقتلوه شر قتلة .

أما صلاح الدين فإنه دهش من هذه الحوادث التي تحرى
 أمام بصره غير أنه لم يفقد ثباته ولم تضعف سيطرته على أعصابه .
 وامتطى صهوة جواده ، وجاء إلى سرادقه بصوت جهورى وزئير
 فسورى - على حد تعبير أبى شامة والدم ينزف من خده ثم ضرب
 حول سرادقه برجا من الحشب وأبعد عن خدمته من لا ينق
 فى ولاته .

واشتدت بلبلة العرب لهذا الحادث وراجب بعض الشائعات
 عن مقتله غير أنه كان يقطع دابرها بالظهور أمام الناس حتى يطمئنه
 على نفسه ويرد الثقة إلى نفوسهم وقد أرسل القاضي الفاضل
 إلى أخيه العادل في مصر كتابا يخبره فيه بنجاة صلاح الدين جاء
 فيه « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم التريب
 « الناصرى » حاصلة ولم ينله من الحشيش الملعون إلا خدش مطره
 من قطرات دم حفيفة انقطعت لوقتها واندمعت لساعتها والركوب
 على رسنه وحصار « أمزار » على حكمه وليس في الأمر بحمد
 الله - ما يشيق صبرا ، ولا ما تشغل سرا » .

وهكذا باءت هذه المؤامرة الدينية بالفشل الذريع واستحو
 مرتكبوها القصباص من غير شك إذ اجتمعت الأمة على عدله

وانصافه وتأييده وتمصيده ولم يصرف عنه الا كل طماع اشر
يبحث عن مصلحته ويهدف الى تحقيق نواياه الخبيثة .

وقد اثبتت الأيام ان صلاح الدين لم يتحول قيد شعرة عن
الدفاع عن العالم الاسلامي والشرق العربي ، ووقف كالطلود
الشامخ في وجه الفرنج ، ولا نار فردريك بريلروسا امبراطور
النمسا ووتشرد قلب الاسد ملك بريطانيا وقيليب أغسطس ملك
فرنسا ، وارسلوا كتابهم واساطيلهم لمحاربة صلاح الدين لم
يتزعزع ايمانه بالكنصر وظل يحصد بسيفه رؤوسهم حتى تم له
الصر والفتح المبين .

الفصل الرابع

مؤامرات من العصر الحديث

لعبت الحملة العثمانية عند نزولها أرض الكنانة مقاومة شعبية مسمتة ، في الوجه البحري ، والوجه القبلي . وهما الشعب المصري في وجه المحتلين مطالب بحقه في الحرية والسيادة باستماتة ثورة في القاهرة في ٢٦ أكتوبر عام ١٧٩٨ ولم ينقض على دخول الفرنسيين سوى ثلاثة أشهر . وتضافرت القوى جميعا لرد الغتصب العاشم . ولم تلبث أن شبت ثورة أخرى ، وأقيمت المتاريس وحفرت الخنادق ، وغلقت أبواب المدينة ، وتطبوع الناس لحراستها ليل نهار . وظهرت الحركة بأجل صورها ، وأروع مظاهرها في مدينة القاهرة وحي بولاق حيث أنشأ الناس مصعا للبارود في الحمرنفتي ، وأقبل السيد المحروقي كبير التجار ، والسيد « عمر مكرم » تقيب الأشراف وسائر الأعيان والنصار على بلل الأموال وتحمل النفقات وأعداد المال والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر ومضى كل إنسان بجود بنفسه ويجمع ما يملكه ، وأعلن بعضهم بعضا « ودفعوا ما في وسعهم وطاقتهم من المعونة » على حد تعبير المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي .

وتعاون الأقباط والمسلمون على رد قوى الظلم والطغيان ، وبمهم أكابر القبط أمثال جرجس الجوهري وعليتوس ، وملطي بمصيهم من الجهاد والتبرع بالاموال .

وغادر نابليون مصر بعد واقعة أبي قير البرية في شهر أغسطس عام ١٧٩٩ بعد أن عين كليبر قائدا للحملة في مكانه ، وترك أمور الحكم في يده ، فأخذ يحرض جنده على الحرب والقتال ، ولا سيما بعد أن رفضت الحكومة البريطانية الموافقة على « اتفاقية العريش » فتأدى في جنوده « أيها الجود لا حواء لنا عن هذه الوقاحة الا التصرف فعملوا الى الحرب » .

وبينما هو يؤيد مياسة العنف والارهاب في البلاد ، تقدم اليه رجل سوري في داره بحديقة الازبكية وكان ينزله مع احد المهندسين الفرنسيين في السنان المجاور لداره ، فطعنه بخنجره عدة طعنات فارداه قتلا . وكان كبير يومئذ يبلغ السابعة والاربعين وقد نقلت أكثر المراجع الأوروبية تفصيل هذا الحادث من محاضر المحاكمة ، كما تعرض لتعاصيله المؤرخ الكبير عبدالرحمن الجبرتي في كتابه المعروف باسم « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

وجملة القول ان كبير كان يسم مع كبير المهندسين الفرنسيين في منافس البستان الذي يحيط بداره في حديقة الازبكية ، وضربه بخنجر كان قد أعده في يده اليمنى ، أربع ضربات متوالية ، فشق بطنه ، وسقط كبير على الأرض صارحا فصاح رفيقه المهندس ، وهم بمساعدته ، ولكن الحطبى بادره بمدة ضربات بالضجر ، ولاد بالفرار ، فسمع العمكر القائلون خارج الباب صرخة المهندس فدخلوا مسرعين فوجدوا كبير طريحاً على الأرض ، ولا يزال فيه الرمق من الحياة ، وقد ولي قاتنه الأدبار ، فانزعجوا وضربوا طلبهم ، وخرجوا مسرعين ، وجروا في كل ناحية للبحث عن القاتل ، واجتمع رؤسائهم ، وأرسلوا الجنود الى الحصون والقلاع ، خشية من ثورة الشعب ، وأقاموا المدافع وجهزوا القنابل ، واستعدوا لساعة الصراع

وشرع الجنود الفرنسيون يبحثون عن القاتل حتى وجدوه منزوياً في البستان المجاور لبيت كبير المعروف « بغيط مصباح » في ذلك الحين ، وكان جائئاً بجوار جدار منهطمة ، فالتقوا القبض عليه ، وعند سؤاله عرفوا أنه من اهل الاقليم الشمالى ومن مدينة حلب ، واسمه سليمان ، ولما سألوه عن محل اقامته أخبرهم .. انه يابى ويبيت في الجامع الأزهر ، ثم سألوه عن رفقاته ومعارفه فدلهم على اسمائهم ، فامر الفرنسيون باحضار الشيخ عبد الله الشرقلوى ، والشيخ أحمد العريش القاضى ، وأرغموهما على احضار الذين ذكر سليمان الحلبى اسماءهم ، بعد ان حجزتهم السلطات الفرنسية الى منتصف الليل .

وقد تم القبض على ثلاثة منهم ، ولم يجدوا الرابع ، فامرت

السلطات العرانية بحبسهم في بيت قائمهم في الأربكية ، وشرعوا في محاكمتهم وسألهم على أفراد ومجمعي .

وقد اثبت الطبيب الشرعي عند معاينة الجثة أن كليبر ضرب بسلاح مذبذب ، وأنه أصيب بأربعة جروح - الأول منها تحب الثدي الأيمن ، والجرح الثاني أسفل الجرح الأول والثالث في الذراع اليسرى وتغل من الناحيتين - والرابع في الحد الأيمن .

واثبت الطبيب الشرعي أيضا أن المهدس «بروتان» الذي كان يرافق كليبر مصاب بسبعة جروح من السلاح ذاته الذي استخدم في قتل كليبر وأن الجرح الأول في جانب الصدغ والذي في عظمة الخصر والثالث بين الضلوع اليسرى - والرابع في الشدة الأيسر والخامس في الصدر ، والثالث سقط وصفه في عبارة المؤرخين ، وكان ترتيبه الرابع في تاريخ الجبرتي .

ولما عقد المجلس العسكري - لحاكمه - أولى جلساته سل المهم عن اسمه وسنه ومسكنه وسعته فأجاب أنه يدعى سليمان ومن أهل الشام وأنه في الرابعة والعشرين وصنعتة كاتب عربي ومسكنه في حلب ، فسئل عن المدة التي قضاها في مصر فأجاب أنه وصل إليها منذ خمسة أشهر في قافلة ، كان سيخها يدعى سليمان يوريجي وسئل عن ملته فأجاب أنه على ملة محمد وأنه كان يسكن قبل ذلك ثلاث سنوات في مصر - وملاها في مكة والمدنية ، وسئل هل يعرف الوزير الأعظم فأجاب أنه ابن عرب ومثله لا يعرف الوزير الأعظم ، ثم سئل عن مصروفه في مصر فأجاب أنه لا يعرف أحدا ، وأكثر جلوسه في الجامع الأزهر ، وأن هناك أناسا كثيرين يعرفونه وشهودون بحسن سلوكه ، ثم سئل هل ذهب في صاح الحادث إلى الجيزة فأجاب بالإيجاب وقال أنه كان يريد أن يعمل كاتبا عند أحد الأشخاص غير أنه « قسم له نصيب » وسئل عن الناس الذين كتب لهم أمس فأجاب أن جميعهم سافروا ولا يعرف أسمائهم ، وعندئذ سأله المحقق كيف يعرف أنهم سافروا ، وفي الوقت ذاته لا يعرف أسمائهم ، فأجاب أنه لا يستطيع أن يتذكر أسمائهم ، فسأله عن آخر شخص كتب إليه ، فأجاب أنه يسمى محمد مغربي الويسي وهو بائع عرقسوس وأنه ما كتب لأحد في الجيزة ، ثم سألوه كيف

قصوا عليه في بستان كليبر فأجاب أنه لم يقبض عليه في الحديقة إنما قبض عليه عرضاً في الطريق ، وهذا طلب منه المحقق أن يقول الحق لأن الضباط الفرنسيين قبضوا عليه في الحديقة ، فاعترف بذلك ، ومثل عن سبب احتجائه فقال أنه لم يكن مغتصباً بل كان جالساً فيها لأن الضالة قد سدوا الطريق ولم يكن يستطيع أن يروح المكان إلى المدينة ، ولم يكن يحمل سكناً ، ولا يعرف أن كان هناك سكن في الحديقة ، فمثل لأي سبب كان يتبع كليبر منذ الصباح فأجاب أنه كان يريد أن يراه فحسب ، فمثل هل يملك قطعة من القماش الأخضر نزع من ثوبه فوجدت ملقاة في الحديقة فأجاب أنها ليست ملكاً له ، فمثل هل تحدث إلى أحد قمر الحيزة وأن بات ليلته ؟ فقال أنه لم يتكلم مع أحد إلا لأجل شراء بعض الحاجات وأنه نام في أحد جوامع الحديقة ، وهذا أشار المحقق إلى الامارات الظاهرة في رأسه وقال أنها تثبت ادانته لأن المهندس « بروتاين » الذي كان يصاحب كليبر كان يحمل عصا وضربه فوق رأسه فتعفى سليمان الحلبي هذا الكلام وقال أنه لم يجرح إلا ساعة القبض عليه .

وانار هذا القول غضب المحقق ، فأمر « ساري عسكر » بصره ، حتى طلب العفو فكف الجندي عن الضرب ، وفلت وثاقه بعد أن كان مقيداً ، وأخذ يروي القصة من أولها ، فاعترف بأنه لم يحضر إلى مصر إلا منذ واحد وثلاثين يوماً ، وأنه حضر من غزة في ستة أيام على هجين ، وكان في نيته قتل كليبر ، وأنه أرسل من قتل (أغات الينكجيرية) الذين طلبوا عنه اغتيال كليبر ، وأنه لم يتصدر له أحد في مصر ، وإنما سكن في الجامع الأزهر حيث التقى بالسيد محمد القزى ، والسيد أحمد الوالى، والشيخ عبدالله القزى ، والسيد عبد القادر القزى فاطلهم على مراده ، وأخبرهم بيته، ولكنهم أشاروا عليه بالعدول، واقترحوا عليه أن يطلب من المحرضين اختيار أحد سواه ، وأنه قصد إلى الجزيرة ، ثم ذهب إلى دار كليبر بعد ذلك حيث التقى ببعض « التوابية » فسألهم عنه فاستفسروا عن السبب في ذلك، فأبدي لهم رغبته في محادثته ، فقالوا له أن كل ليلة ينزل إلى الحديقة وفي صباح الحادث وحده كليبر مسائراً في المدينة ثم قصد إلى البستان فتشبه حتى اغتاله .

وتعددت محاكمة سليمان الحلبي ، كلما طهر شيء جديد
 هي القضية أو صرح أحد الشهود ببعض الوقائع وأخذت شهادة
 الجنود الفرنسيين الذين اتقوا القبض عليه ، كما نودي على
 أصحاب الاسماء الذين ذكرهم الحلبي في أقواله ، وكلاهما من
 أقوالهم ما يتطلب الرجوع الى سليمان الحلبي عادوا اليه بالتهديد
 والوعيد ، والويل والخيبر ، وقال في التحقيق الثالث انه حضر
 من غرة مع قافلة تحمل صابونا وتبعا وان القافلة كانت خائفة من
 النزول في مصر فقصدت الى ريف يسمى « الفيطة » من ناحية
 الألفية ، حيث أساجر حمارا من أحد العلاحين وحضر الى مصر ،
 ولما لا يعرف الفلاح صاحب الحمار ، ثم ان أحمد آغا وكبير
 أغوات حلب وكلوه في قتل كبير وأوصوه ان يسكن في الجامع
 الأزهر ، والا ييوج بصره لاحد بل ينهز القصر لتنفيذ مؤامره
 لأن هذه المؤامرة تتطلب السر والذكاء ، ولكنه عند حضوره الى
 مصر اجتمع بالمشايع الأربعة الذين ذكرهم وقد حاولوا تغيير
 رايه ، حتى كاشعهم بما في نفسه لأنهم من أبناء بلده وقد اعترف
 للمحقق انه يستطيع ان يعرف الخبر الذي استخدمه ، وان
 احدا لم يعطه اياه ، وانما قصد بنفسه الى سوق غرة ، واشرى
 أول سلاح وجده ، وقد مناه الأغوات أن يساعده بكل ما يحتاج
 اليه الامر . فسأله المحقق هل هو فقط الذي وكلت اليه هذه
 المهمة فقال : اظن كذلك لان الكلام حصل سرا بينه وبين الأغوات
 وتلى على المجلس العسكري تليع المهندس « بروتاين »
 الذي كان يصاحب كبير وقت الحادث وجاء فيه انه كان يتعشى
 تحت التغطية الكبيرة الموجودة في حديقة كبير ، وتطل على بركة
 الأريكية فأبصر رجلا يلبس الملابس العثمانية وهو يخرج من بداية
 التغطية بجوار الساقية وكان في ذلك الوقت يبعد بعض الشيء
 عن كبير لينادي أحد الفقراء ووجاء انتبه فوجد الرجل المذكور
 يضرب كبير بالسكين عدة مرات فارتدى على الأرض وفي ذلك
 الوقت سمع كبير يصرخ : فهرع لانقاذه ولكن الرجل ضربه
 بنفس السكين الذي اعتدى به على كبير وهنا فقد المهندس وعه
 غير أنه يعرف انه مضت ست دقائق قبل أن يسمعه احد .

وقال أحد الجنود الطويجة الملازمين لدار كبير واحد الذين

اسرکوا فی القصر علیہ ویلعی « روبرت مسکو » أنهم وحدوه فی الحدیقه الی یوجد بها الحمامان العربسیان الملصقان بحدیقه کلبر وانه کان محتسبا بی جدران الحدیقه المنهدمة وان الحیطان المذكوره كانت ملطحة بالدماء فی بعض الواحی ، وان سلیمان نفسه کان ملطحا بالدماء وانهم وجدوا السکین ملقى فی الحدیقه بعد صاعه من ارتکاب الحادث .

وبودی علی تسبوح الأزهر الأربعة . وسلوا حملة من الأسللة وكان سلیمان قد أفضى الیهم بعزمه علی قتل کلبر . وحاولوا ان یقحموا اسم السیخ عبدالله المرفاوی سیخ الأزهر فی تحریره علی ارتکاب الحریمه ولكنهم لم یجدوا الدلیل القاطع علی ذلك .

وهكذا تأکدت الأدلة والقرائن علی سببه التهمه الی سلیمان الحلی فأصدر المجلس العسکری حکمه بأن تحرق یده الیسی ثم یجلس علی الحازوق لحن تآکل رمنه الطیور ، وهكذا یكون فوق تل الععارب المعروف بالنصاریه (١) .

كما اذان المجلس العسکری الأربعة من مشایخ الأزهر ، لانهم لم یخروا السلطات العرسیه بما سمعوه من سلیمان او عرفوه من عزمه علی اغتبال کلبر .

وكان الشیخ عبدالله الغزی فی الثلاثین من عمره والشیخ محمد الغزی فی الخامسة والعشرین ، أما السید احمد الوالی فقد ذکر انه لا یعرف سنه ، والشیخ عبد القادر الغزی حوكم غیایا لانه لاذ بالفراوی .

وقد نفذ حکم الإعدام فی المشایخ الثلاثة قبل اعدام سلیمان وتمت سماعه وبصره . فأحرقت جثثهم ووضعت رؤوسهم علی نباته لیطاف بها فی شوارع المدینه .

وقد اغلق الجامع الأزهر بعد أسبوع من مقتل کلبر لأن القاتل کان قد قضی فیہ فترة من الوقت قبل اقتراف فعلته ، ولعله بث فكرة التدمير والثورة فی نفوس الأزهریین الذین كانوا

(١) هكذا فی الجبرتی والمظنون ان هذا المكان بجوار القلعة

يستعدون لساعة الخلاص بصبر نافذ ، ويتأهبون للانقضاض على الفرنسيين لخراجهم من البلاد وقد ظل الأزهر مغلقا عاما كاملا ، * وسمروا أبوابه من جميع الجهات * على حد تعبير الجبرتي الى ان اعيد فتحه عقب خروج الفرنسيين من مصر اى في ٢ يونيو عام ١٨٠١ .

وليس من شك في ان الصورة التي تم فيها تنفيذ العقوبة كانت من البشاعة بمكان ، والعقوبة اتكى بالنسبة الى المشايخ الأربعة ، ولو اما درسنا الظروف التي تمت فيها الجريمة اوجدناها ظروفًا غير عادية . اما هي ظروف سياسية عصبية وكاب الحرب دائرة بين الفرنسيين المقتصبين ، والاهالي الأمنين ، وكانت المقاومة الشعبية متمثلة في كل مكان من شمال الدلتا الى جنوب الصعيد ، اضعف الى ذلك ان الفرنسيين استخدموا اشنع وسائل الارهاب والتعذيب ضد الاهالي فقتلوا الشيوخ ، ورملوا النساء ، وبموا الاطفال ، ونشروا الرعب في كل مكان ، وليس صحيحا ان ياسين اغا حرضه بأربعين قرشا على قتل كبير فهو مصري الشعور ، أرهق الثقافة يحس باحساس الوطنية بل القومية العربية ضد الظلم والظفیان ، وليس هذا الا توجيها لمعاطفة موجودة اصلا .

هيئة قناة السويس

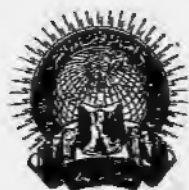
معمل الأبحاث الهيدروليكية

لا تألو الإدارة المصرية المشرفة على قناة السويس جهدا في العمل على رفع إمكانيات المرفق للاحتفاظ به على المستوى الذي يسمح له بمسايرة تطور حركة بناء السفن في العالم .

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ، أنشأت الهيئة معملا للأبحاث الهيدروليكية بمدينة الإسماعيلية ، حيث مقرها الرئيسي ، لبحث ودراسة كل ما يتعلق بشئون الملاحة في القناة . ويجري العمل حاليا على قدم وساق لتزويد المعمل بما يتطلبه من أجهزة ومعدات حتى يتيسر افتتاحه في أقرب وقت ممكن ،

ويجدر بالذكر انه قد أجريت بعض التجارب قعلا صباح يوم الثلاثاء ١٨ أكتوبر ١٩٦٠ على عربى الدليل لسحب السفن فبلغت سرعة أحدهما خمسة أمتار في الثانية ، وأمكن التحكم فيها أما باليد أو بجهاز الكرونى ، وبلغت سرعة الأخرى ٥٠ مترا في الثانية وأمكن التحكم فيها باليد فقط . وقد اقتضت هذه التجارب استعمال نماذج للسفن التى تعبر القناة مع كل من العربتين وسوف تودى التجارب التى أجريت لدراسة تأثير الأمواج وقوة الدفع والمقاومة على ضفتى القناة الى تحديد السرعة القصوى التى يمكن السماح بها لعبارات القناة .

وحرصا على أن تأتى هذه التجارب بالنتيجة المرجوة بالسرعة والدقة المطلوبتين أنشئ المعمل في منطقة القناة نفسها لا في مدينة جرينويل بفرنسا كما كان الحال أيام الشركة المنحلة التى كانت تستنفد الوقت والجهد والمال على نجارب في مكان يبعد آلاف الأميال عن موقع المرفق .



١٥٧ شارع عبید - دوض القرج
تلفون ٤٠٥٨٧ - ٤٠٧٥٣ - ٤٠٨١٤ - ٤١٠١٣



۱۵۷ شارع عبید - روض الفرج
تلیفون : ۴۰۵۸۸ - ۴۰۸۱۴ - ۴۰۷۵۳ - ۴۱۰۱۲